الأخوان المسلمين

و الطبقة العاملة المصرية



سناء المصرى

الإخوان المسلمون

والطبقة العاملة المصرية

تأليف

سناء المصري

طبقا لقوانين الملكية الفكرية



الإخوان المسلمون والطبقة العاملة المصرية

كل هذا العداء

من الأحداث يمكن أن نعرف حقيقة القوى السياسية دون تزييف ولا مواربة.. خصوصا إذا كانت تلك القوى نشأت على استخدام اللغة المطاطة وتدربت على أعمال التمويه..

والإخوان المسلمون تدربوا منذ بداية تكوينهم على استخدام تلك الأساليب واستفادوا كثيرا عبر تاريخهم من المظلة الضبابية التي يغلف بها الخطيب كلامه حتى يصبح فضفاضا، يرضي جميع الأطراف ويصعب الإمساك به في نفس الوقت.

يكتفي بالإيحاء بالشيء ولا ينطقه صراحة، وعلى السامع أن يفهم حسب هواه أو حسب الموقف والظروف.

وبدعوى أن المؤمن "كيس.. فطن" فإن مقياس نجاح هذا المؤمن يكون بقدر ما يفلح في ترك الباب مواربا ليدخل منه

كل من يمكن أن يبتلع الطعم، بينما تظل المبادئ راسخة في يقين الخطيب وفي يقين تياره.

"أسمع كلامك أصدقك.. أشوف أمورك أستعجب"

ولمعرفة الحقيقة لا مفر إذن من النبش في تلك المنطقة المستترة خاف الدعاية ومهرجانات استعراض القوة وتضخيم الذات.

لا مفر من استحضار التاريخ، وكشف ما تعرض للنسيان بفعل براعتهم السياسية وهزال القوى الأخرى في مواجهتهم.

ولكن من أين نبدأ والحلقات الاجتماعية متعددة الأطراف..؟

وهم يتحدثون باسم الأمة الإسلامية وكأنها كتلة مصمتة واحدة.

ويموهون الصراع الاجتماعي ويعطونه أسماء جديد.

يتحدثون عن الرأسمالية والرأسماليين بمسميات جديدة.

يدعونهم بالأغنياء ويقولون إنه من الطبيعي أن يملكوا ويتربعوا على عرش الثروة.. ومن ثم يطالبون بالتسامح

معهم وإعطائهم فرصا جديدة ومنحهم كل الإمكانيات والتسهيلات.

ولكن هل تغير المهارة اللفظية حقيقة وضع الأطراف الاجتماعية المتصارعة..؟

- وهل تُغير بعض الرتوش ما يترتب على القبح من أوضاع ظالمة..؟

ما موقفهم من الطرف النقيض في عملية إنتاج الثروة..؟

ما موقفهم من العمال.. وكيف يرون مكانهم في الخريطة الاجتماعية.. كيف يرون حقوقهم الاقتصادية والسياسية..؟ كيف يرون التمردات العمالية الكبرى..؟ وما موقفهم من أسلحة الإضراب والتظاهر والاعتصام..؟ وفي النهاية ماذا يعدون للعمال من مصير..؟

هل نثقل عليهم بقضايا لم يطرحوها.. ونسألهم في مواضيع لم يخوضوا فيها..؟

لا.. لا.. غير صحيح.. فالإخوان والجماعات الإسلامية ظاهرة سياسية تعيش واقعنا الحالي وتنتج عنه.. يصارعون القوى السياسية الأخرى حينا، ويتحالفون معها أحيانا أخرى.. يصعدون على أكتافها بعض الوقت ويحاولون خنقها في

أوقات أخرى.. ولديهم تصورات نظرية عن المشاكل والمعضلات الاجتماعية.. وطالما خاضوا في قضايا الرأسمالية وقضايا العمال.

ولكن بأي روح.. ولخدمة أي أهداف..؟

فلنقرأ تاريخهم إذن ونبحث في ثناياه عما يخفون..

وهم كما يعرف الجميع لم يسيروا على وتيرة واحدة.. بل صعدوا وهبطوا عدة مرات.. ظهرت بثورهم على سطح المجتمع واختفت.. في فترات كانوا قوة سياسية ظاهرة الوجود.. وفي فترات أخرى اندثروا..

كانوا كـ: (الزجزاج) المتعرج حينما يأكل النسيان نصفه الأسفل ويترك فراغات كبيرة بيضاء لا ظل لهم فيها..

حيث امتدت الحلقة الأولى لجماعة الإخوان المسلمون من عام ١٩٢٨م وحتى عام ١٩٤٨م.. وانتهت باغتيال حسن البنا وتعقب الجماعة..

وانشغلت بقية الجماعة في الصراعات الداخلية حتى عام ١٩٥٢م.

ومع ٢٣ يوليو كان صعودهم الثاني وهبوطهم..

وعلى إثر قمع الناصرية الشديد لهم انكفئوا على جراحهم حتى كانت عودتهم الجديدة بعد عام ١٩٧٣م.

ولكن ما سر تلك الحركة الصاعدة.. الهابطة..؟

ما سر التحالف مع الحكومات المختلفة.. وسر انقلاب الحكومات عليهم؟

هل لطبيعتهم السياسية علاقة بذلك..؟

هل هناك دور ما تؤديه تلك الجماعة لإعادة ترتيب الأوضاع الاجتماعية في لحظات بعينها.. ثم تنتهي الحاجة إليها..؟

وهل تملك الجماعة أطراف اللعبة أم يملكها الحليف.. أم هو صراع القوي الذي يعارك الأحداث ويحاول أن يستميلها كل طرف لصالحه باستخدام الآخر...؟

فلنقرأ تاريخهم إذن ونبحث في ثناياه عما يخفون.. ولا يمكن أن نفهم حقيقتهم كظاهرة سياسية إلا بتأمل كلا الجانبين:

- مواقفهم الشديدة الحدة والعنف.
- ولغتهم الشديدة المداهنة.

وسنجدهم يظهرون وجها في فترات السكون.. وفي خضم الصراع يظهرون وجها آخر.

ولذلك فإن المراوغة والالتواء والتلون اللانهائي هي كنة المسألة وبيت القصيد هنا.

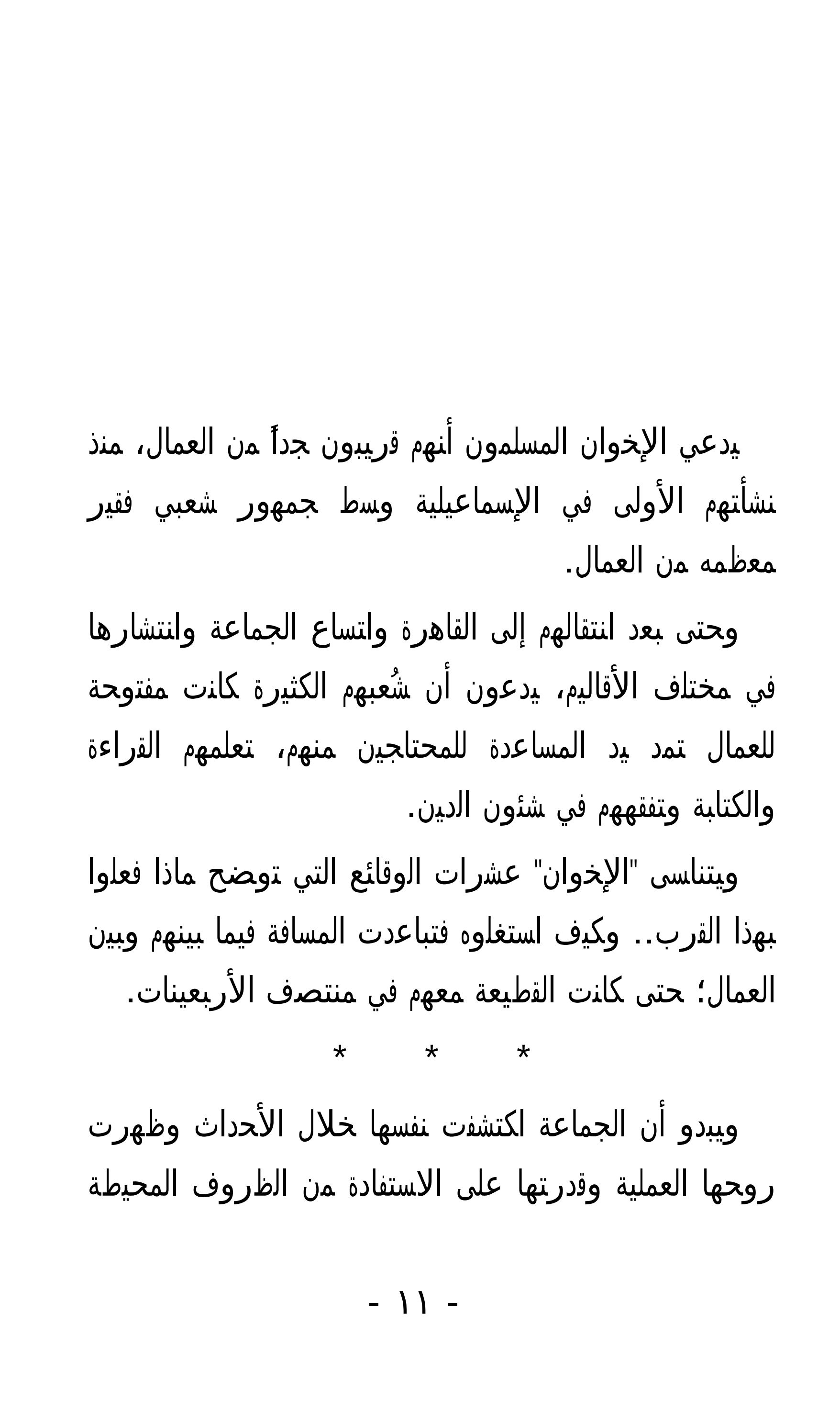
وخلف كل ذلك.. تقبع حقيقة موقفهم من طرفي الصراع الاجتماعي الأساسيين.. الرأسماليين والعمال.. فما حقيقة هذا الموقف..؟

وكيف تجلى في الفترات الاجتماعية السابقة...؟

الفصل الأول

الأحداث والوقائع

والتاريخ لا ينسى



يدعي الإخوان المسلمون أنهم قريبون جداً من العمال، منذ نشأتهم الأولى في الإسماعيلية وسط جمهور شعبي فقير معظمه من العمال.

وحتى بعد انتقالهم إلى القاهرة واتساع الجماعة وانتشارها في مختلف الأقاليم، يدعون أن شُعبهم الكثيرة كانت مفتوحة للعمال تمد يد المساعدة للمحتاجين منهم، تعلمهم القراءة والكتابة وتفقههم في شئون الدين.

ويتناسى "الإخوان" عشرات الوقائع التي توضح ماذا فعلوا بهذا القرب.. وكيف استغلوه فتباعدت المسافة فيما بينهم وبين العمال؛ حتى كانت القطيعة معهم في منتصف الأربعينات.

*   *   *

ويبدو أن الجماعة اكتشفت نفسها خلال الأحداث وظهرت روحها العملية وقدرتها على الاستفادة من الظروف المحيطة

بها ويوما بعد الآخر زادت روابطها مع الأغنياء وكبار الملاك والحكام.

وفي البداية أثيرت علامات الاستفهام حول هذه الجماعة الصغيرة المتَحلقة حول شخص مدرس وافد إلى المدينة، وسرعان ما أجرت وزارة المعارف تحقيقا مع حسن البنا مؤسس الجماعة عام ١٩٣٠ بناء على طلب من إسماعيل صدقي رئيس الوزراء.. وانتهى التحقيق باطمئنان صدقي، الذي لم يكن يطمئن إلى أي جماعة من الجماعات والأحزاب السياسية الموجودة آنذاك؛ بسبب الاضطراب السياسي الواقع والمظاهرات المتوالية.

وفي هذه الفترة كانت مصر تعاني من آثار الكساد الكبير الذي بدأ عام ١٩٢٩ في العالم كله وامتد إليها – فكسدت الأعمال وزادت البطالة وارتفعت الأسعار.

وكما يقول أمين عز الدين: (أن الأزمة خلقت صعوبات جسيمة في حياة الطبقة العاملة، وأدى ذلك إلى تحريك تيارين متناقضين حول الأجور:

أولهما: تيار وسط العمال الذين تطلعوا نحو تحقيق زيادات في الأجور لمواجهة الغلاء والارتفاع المستمر في أسعار الحاجات الضرورية.

ثانيهما: تيار وسط إدارات الشركات وأصحاب الأعمال الذين تطلعوا نحو ضغط الأجور حفاظا على مستوى أرباحهم أو محاولة لخفض التكلفة في مواجهة المنافسة المستمرة حينذاك). [1] وسواء كان صاحب رأس المال مصريا أو أجنبيا، أو كونهما شركاء، فقد كانت ظروف العمل قاسية وتصاعدت نضالات العمال لانتزاع تشريع منصف للعمل مع حق تكوين النقابات وتحديد ساعات العمل ورفع الأجور، إلى غير ذلك من المطالب المجسدة لأزمة طاحنة تعكس نفسها على الحياة اليومية للشعب.

وفي هذه الفترة كان الشغل الشاغل لجماعة الإخوان المسلمين، المكونة حديثا، هو موضوع النمو والانتشار في الإسماعيلية والمدن المحيطة بها، وكانت الجماعة بزعامة حسن البنا لا تجد حرجا في قبول أي مساعدة تقدم لها من كل

الجهات الموجودة آنذاك.. الرسمية وغير الرسمية، والمصرية وغير المصرية.. بروح برجماتية صرفة.

في نفس الوقت الذي كانت عيون المؤسسات والجهات المختلفة ترقب حركة مثل هذه الجماعة وتحاول أن تفهم كنهها.

وليس غريبا في هذا الإطار أن نجد تقارير عديدة عن جماعة الإخوان مرفوعة إلى الجهات العليا. منها هذا التقرير المؤيد للجماعة الذي يذكره حسن البنا في مذكراته بفخر واضح بقوله:

(من الطرائف كذلك أنه جاء في تقرير أحد رجال البوليس بهذه المناسبة أن كثيرا من الذين لم تنفع معهم وسائل التأديب البوليسية ولم تردعهم عن ارتكاب بعض الزلات قد أفلحت معهم الوسائل الروحية التي تؤثر بها جماعة الإخوان على نفوسهم، فصاروا من أمثلة الاستقامة والصلاح، وأنه يقترح – رجل البوليس – أن تشجع الحكومة وتعمل على تعميم فروع هذه الجماعة في البلاد حتى يكون في ذلك أكبر خدمة للأمن والإصلاح). [٢]

كما نلمح في هذا الوقت بداية اهتمام جهات أخرى بجماعة الإخوان المسلمون مثل الإدارة الأجنبية لشركة قناة السويس المهيمنة على منطقة القناة عموما.

وهناك حادثة مشهورة ذكرها جميع المؤرخين سواء منهم المتعاطف مع الإخوان أو غير المتعاطف معهم، وهي حادثة قبول حسن البنا مبلغ خمسمائة جنيه كتبرع من الإدارة الأجنبية للجماعة، ويروي "البنا" تلك الواقعة بقوله:

(جاءني أحد الموظفين يدعوني لمقابلة البارون: دي بنوا مدير شركة القنال – بمكتبه بالشركة فذهبت إليه فتحدث إلي عن طريق مترجم بأنه رأى البناء – المسجد – وهو يود أن يساعدنا بتبرع مالي، وهو لهذا يطلب رسما ومذكرة للمشروع، فشكرت له ذلك وانصرفت ووافيته بعد ذلك بما طلب، ومضى على ذلك شهور كدنا ننسى فيها البارون ووعده، ولكني فوجئت بعد ذلك بدعوة ثانية منه إلى مكتبه فذهبت إليه فرحب بي ثم ذكر لي أن الشركة اعتمدت مبلغ خمسمائة جنيه مصري للمشروع؛ فشكرت له ذلك وأفهمته أن هذا المبلغ قليل جدا، ولم يكن منتظرا من الشركة تقديره لأنها في الوقت الذي تبني فيه على نفقتها كنيسة نموذجية

تكلفتها ٥٠٠٠٠٠ خمسمائة ألف جنيه، أي نصف مليون جنيه، تعطي خمسمائة فقط، فاقتنع بوجهة نظري وأظهر مشاركتي فيها، ولكنه أسف لأنه هذا هو القرار) [٣].

وفضلا عن وضوح روح المساومة في النص السابق وتجسيده لروح التفرقة بين المسلمين والمسيحيين في المقارنة حول ما أعطي للكنسية وما يخصص للمسجد – وهي فكرة أساسية لدى الإخوان – فإن الحدث برمته يثير علامات استفهام كثيرة حول طبيعة الجماعة وأساليب كلا الطرفين:

فإذا كانت إدارة شركة القناة ترغب في وجود مسجد استرضاء لرغبات مستخدميها وجمهور المدينة من المسلمين، فلماذا لا تقوم ببنائه هي مباشرة حيث سيعود الفضل إليها وتكتسب رضى هذا الجمهور..؟

لماذا تقوم بذلك عن طريق جماعة خارجية لها ميول غامضة..؟

والمعروف أن شركة القناة ليست جمعية خيرية تقوم بتقديم التبرعات بل لها من الأهداف السياسية والاقتصادية مالا يخفى على أحد في ذلك الزمان..؟؟؟

وإذا كانت الجماعة صادقة فيما تدعيه من العداء للأجانب، فلماذا تتعامل مع نفس هؤلاء الأجانب عن طريق ممرات خلفية غير معلنة للجمهور، حيث لم تنكشف تلك الوقائع إلا بعد حدوث خلافات داخل جسم الجماعة وانشقاق البعض.

ومن جهة أخرى نجد صمت الإخوان المطبق إزاء الأحداث العمالية المتصاعدة.

ففي الإسماعيلية مقر الإخوان المسلمين، اندلعت عدة إضرابات ضد إدارة الشركة، وفي مرفق النور، وفي مرفق المواصلات.. لكن لا تعليق إخواني واحد على هذه الأحداث المبكرة، وكل ما هنالك أخبار عن نشاط إخواني يتركز في الوعظ الديني وإقامة الصلاة والاحتفالات بمناسبة المولد النبوي – الهجرة – رمضان – العيد. وفي فترة التكوين والانتشار الأولي، كان الإخوان يوجهون دعايتهم بنفس الأسلوب السابق في كل المواقع الجماهيرية: المقاهي – الجوامع – البيوت، وأحيانا في بعض المواقع العمالية التي أتيح لهم عقد صلة مع بعض أفرادها، فيبعثون بمندوب الإخوان لإلقاء الوعظ عليهم بصفتهم محض أفراد مسلمين دون التورط فيما يخص الأوضاع العمالية.

وفي نفس الوقت الذي يؤكدون فيه أنهم ليسوا بجماعة سياسية يحرصون على إظهار ولائهم للسراي والملك، حتى أن البنا يخاطب عمال الإسماعيلية أثناء الإعداد للاحتفال الذي تعده شركة قناة السويس للملك بقوله:

(لازم تذهبوا إلى الأسكلة وتحيوا الملك حتى يعرف الأجانب في هذا البلد أننا نحترم ملكنا ونحبه فيزيد احترامنا عندهم). [٤]

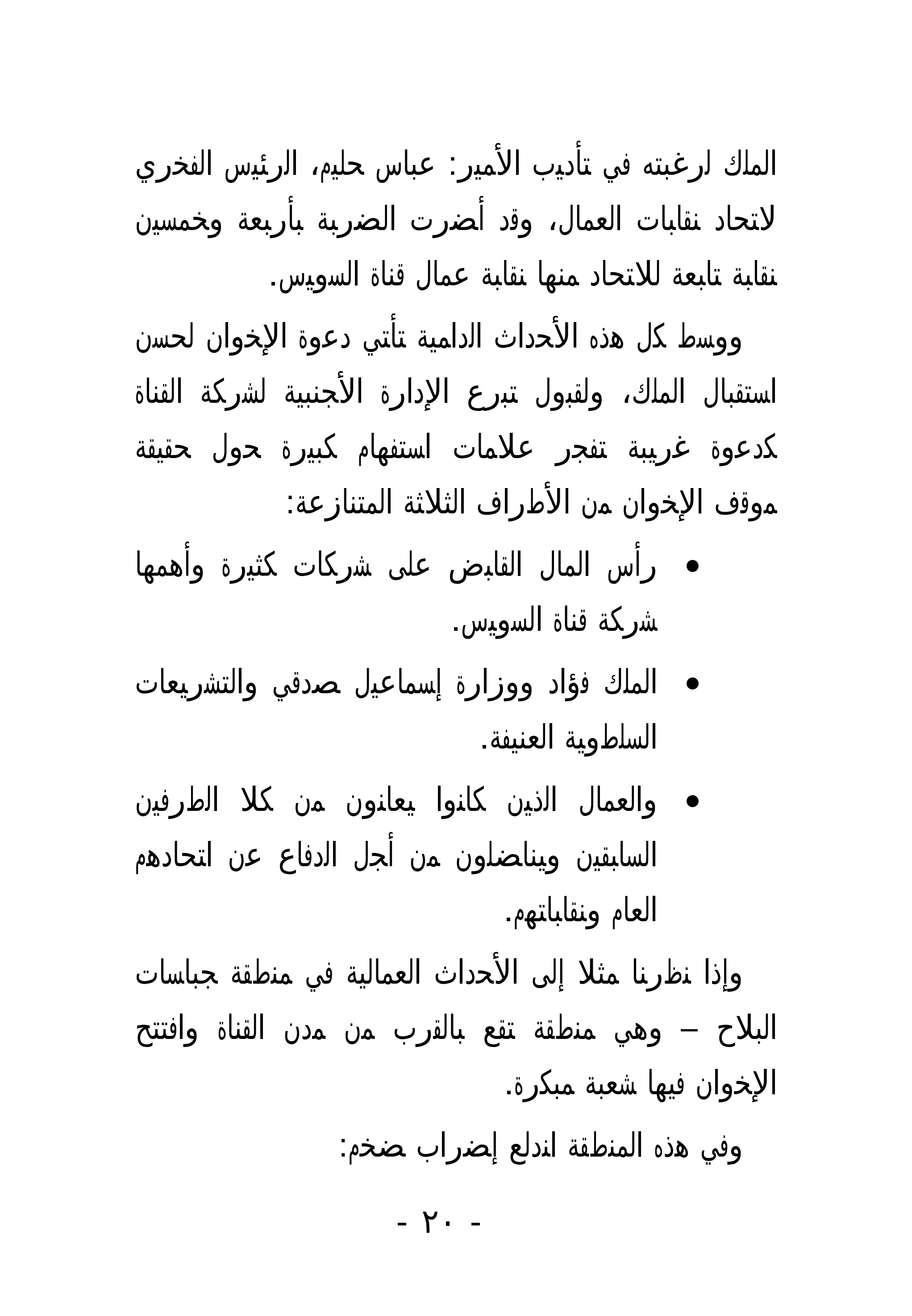
وتستمر بعد ذلك موجة إظهار الولاء والطاعة للملك في المناسبات الصغيرة والكبيرة حيث نجد بعد ذلك خبرا عن: تشريف جلالة الملك عاصمة ملكه:

(قرر مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمون الاحتفال بقدوم صاحب الجلالة الملك المعظم عاصمة ملكه يوم الخميس ٢٩ الجاري، فأصدر أمره إلى جميع الفروع في الأقاليم أن يصطف الأعضاء بأعلامهم وجوالتهم على المحطات التي يقف فيها القطار الملكي لأداء فروض الولاء والاحتفال بالطلعة المحبوبة.) [٥]

ويبدو أن عمال مصر كانوا يرون وجها آخر لتلك الطلعة المحبوبة، وكانت مظاهراتهم تندد بولاة الأمور الذين أغلقوا اتحاد العمال.

فكانوا يهتفون ضد "إسماعيل صدقي" – صديق الإخوان (الذي ألحق مكتب العمل ضمن جهاز عموم الأمن في ديسمبر ١٩٣٠ م، والذي فرض الرقابة البوليسية على دور النقابات، وعلى سراي عباس حليم، في محاولة لخنق الاتحاد العام) ثم (إنقض عليه يوم ١٥ مارس ١٩٣١ فأغلق مقره الجديد بشارع فؤاد الأول، وحظر عقد اجتماعاته، وصادر أمواله وموجوداته. كما أغلق دور النقابة الأخرى وأنديتها. وأطلق رجال الأمن يلاحقون العناصر النقابية النشيطة ويسجلون لهم محاضر تشرد في أقسام البوليس ويعتقلون البعض الآخر). [٦]

وقوة الضربة التي وجهها إسماعيل صدقي إلى العمال في ذلك الحين، تجعلنا نوافق على وجهة النظر القائلة: إن صدقي قد استشار الملك فؤاد الأول – حبيب الإخوان الذي يخرجون لتأمل طلعته البهية – قبل أن يوجه ضربته إلى العمال واتحادهم العام ونقاباتهم المختلفة، وأن الفكرة لقيت ترحيب



الملك لرغبته في تأديب الأمير: عباس حليم، الرئيس الفخري لاتحاد نقابات العمال، وقد أضرت الضربة بأربعة وخمسين نقابة تابعة للاتحاد منها نقابة عمال قناة السويس.

ووسط كل هذه الأحداث الدامية تأتي دعوة الإخوان لحسن استقبال الملك، ولقبول تبرع الإدارة الأجنبية لشركة القناة كدعوة غريبة تفجر علامات استفهام كبيرة حول حقيقة موقف الإخوان من الأطراف الثلاثة المتنازعة:

- رأس المال القابض على شركات كثيرة وأهمها شركة قناة السويس.
- الملك فؤاد ووزارة إسماعيل صدقي والتشريعات السلطوية العنيفة.
- والعمال الذين كانوا يعانون من كلا الطرفين السابقين ويناضلون من أجل الدفاع عن اتحادهم العام ونقاباتهم.

وإذا نظرنا مثلا إلى الأحداث العمالية في منطقة جباسات البلاح – وهي منطقة تقع بالقرب من مدن القناة وافتتح الإخوان فيها شعبة مبكرة.

وفي هذه المنطقة اندلع إضراب ضخم:

(حاولت الشركة التخلص من اتفاقية العمل المبرمة مع عمالها. وقد استمر الإضراب أحد عشر يوما، وتطور في يومه العاشر تطورا خطيرا عندما أحضرت الشركة عمالا آخرين من بورسعيد والقاهرة ليحلوا محل العمال المضربين، وأرسلت المحافظة خمسين جنديا إلى البلاح، وطلبت الشركة من البوليس إخراج العمال المضربين من مساكنهم بالقوة، ولكن العمال رفضوا ذلك). [٧]

وبرغم مقر الإخوان في المنطقة.. وادعائهم الاهتمام بشئون العمال، إلا أن العمال لم يجدوا منهم في هذه الأحداث الكبرى التي تناولتها صحف العاصمة بالتعليق القلق سوى التجاهل التام.. ولم يرد أي ذكر أو تعليق عليه في حينه.

وفي (يوليو ١٩٣٤ تجدد الصراع في منطقة القنال بين شركة جباسات البلاح وعمالها، بسبب تخفيض الشركة للأجور، ووقع صدام عنيف بين العمال والبوليس أصيب فيه سبعة عمال برصاص البوليس). [٨]

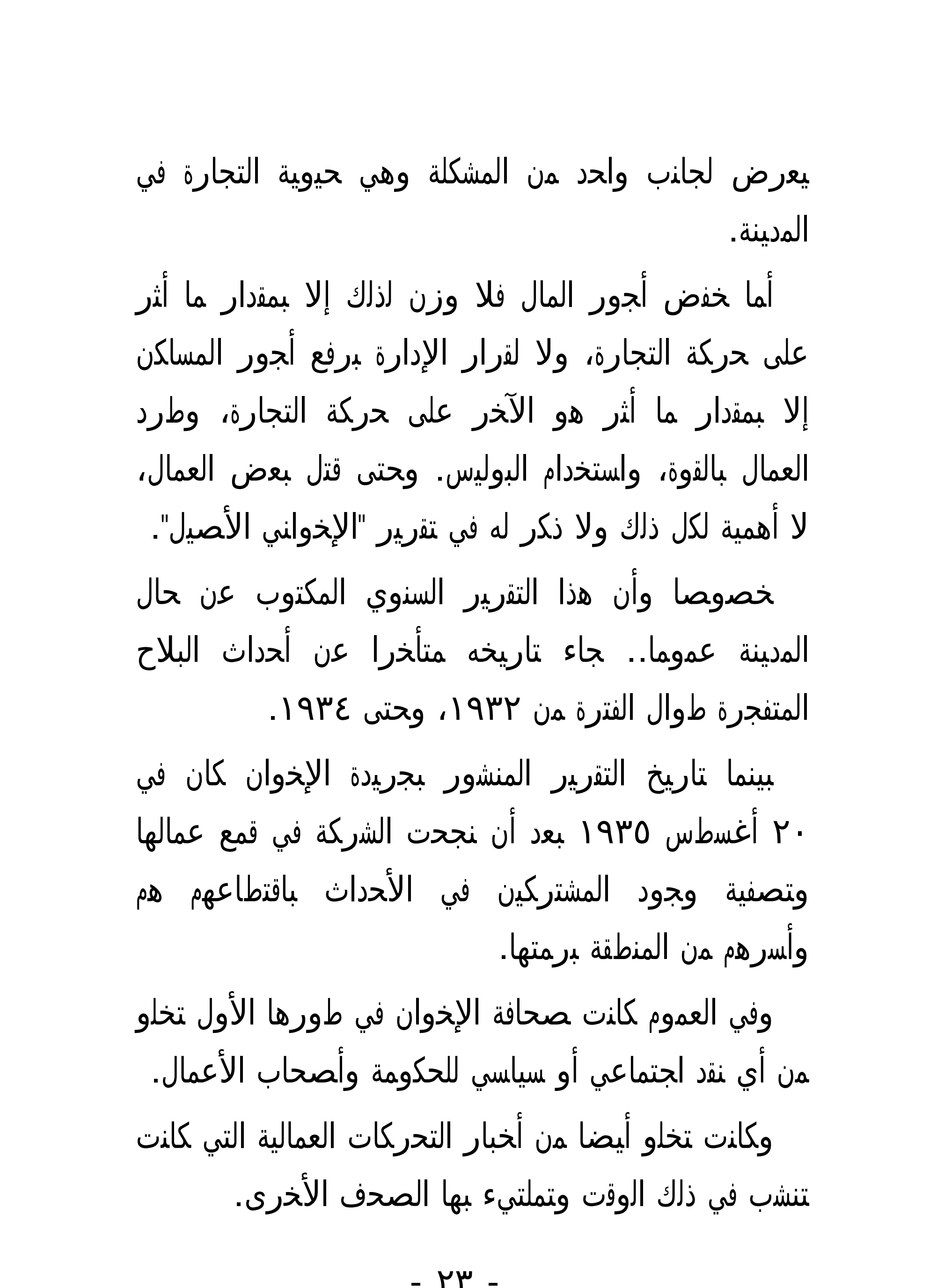
ولم يحرك الرصاص الحي المستخدم ضد عمال المنطقة قرار الإخوان بالصمت المطبق والابتعاد عن الانغماس في المشاكل العمالية.

ولم ينطق الإخوان بحرف واحد في التعليق على هذه الأحداث الدامية إلا بعد مرور ثلاث سنوات عليها... – أي بعد خراب مالطة – فقد كتب نائب جمعية الإخوان المسلمون ببور فؤاد تقريرا روتينيا يرثي فيه أطلال المدينة الجميلة ويتألم على أيامها الخوالي:

(كانت المدينة منذ سنتين أكثر عمرانا مما هي عليه الآن، نظرا لكثرة العمال الذين كانوا يسكنون مبانيها.. فرفعت الشركة أجور المساكن فهجر كثير من العمال المدينة وقلت الحركة التجارية، فإذا خفضت الشركة قيمة الإيجار قليلا لكثر السكان، وانتفعت الشركة ماليا وانتعشت حركة العمران). [٩]

ويبدو "حسن فرج"، كاتب التقرير السابق، كمن أخذه النعاس، أو الذي تناعس زمنا طويلا، حدثت فيه أحداث دامية وأبيد البشر وجفت الحياة، وحينما استيقظ أخذ يتساءل: أين الناس...؟ أين التجارة...؟ أين العمران....؟

والمهم لدى هذا "الإخواني الأصيل" هو حركة التجارة والعمران حتى ولو كان وقودها العمال ومطالبهم، ولذلك فهو



يعرض لجانب واحد من المشكلة وهي حيوية التجارة في المدينة.

أما خفض أجور المال فلا وزن لذلك إلا بمقدار ما أثر على حركة التجارة، ولا لقرار الإدارة برفع أجور المساكن إلا بمقدار ما أثر هو الآخر على حركة التجارة، وطرد العمال بالقوة، واستخدام البوليس. وحتى قتل بعض العمال، لا أهمية لكل ذلك ولا ذكر له في تقرير "الإخواني الأصيل".

خصوصا وأن هذا التقرير السنوي المكتوب عن حال المدينة عموما.. جاء تاريخه متأخرا عن أحداث البلاح المتفجرة طوال الفترة من ١٩٣٢، وحتى ١٩٣٤.

بينما تاريخ التقرير المنشور بجريدة الإخوان كان في ٢٠ أغسطس ١٩٣٥ بعد أن نجحت الشركة في قمع عمالها وتصفية وجود المشتركين في الأحداث باقتطاعهم هم وأسرهم من المنطقة برمتها.

وفي العموم كانت صحافة الإخوان في طورها الأول تخلو من أي نقد اجتماعي أو سياسي للحكومة وأصحاب الأعمال.

وكانت تخلو أيضا من أخبار التحركات العمالية التي كانت تنشب في ذلك الوقت وتمتلئ بها الصحف الأخرى.

وإذا تصادف وقدم الإخوان نقدا فيكون في ظروف استثنائية نادرة، وعلى استحياء، وفي حدود هامشية لا تمس جوهر الحقوق العمالية بل تغلب عليه روح العتاب الرقيق والتلويح بدعامات تُقَوى مصالح رأس المال كما في قولهم:

(إذا خفضت الشركة قيمة الإيجار قليلا.. انتفعت الشركة ماليا). [١٠]

* * *

وعلى عكس التراخي في نشر أخبار الإضرابات العمالية، كان الإخوان ينشطون في منافسة الفرق البريطانية في لعب الكرة:

(تبارى فريق كرة القدم للإخوان بالإسماعيلية، مع فريق الطيران البريطاني على ملعب الطيران داخل المعسكر الإنجليزي..

وقد انتهت المباراة بتغلب فريق الإخوان بخمس إصابات ضد إصابة واحدة للإنجليز.

وقد شاهد المباراة كثير من الأخوان والجنود الإنجليز) [١١]

* * *

وبينما فترة الثلاثينات تشهد تصاعد الإضرابات العمالية من أجل المطالب السابقة، كان اتجاه الإخوان يمعن في الإبحار تجاه عقد الصلات والروابط مع الوجهاء والأعيان:

(كانت جمعية الإخوان المسلمون ببورسعيد في مقدمة الهيئات التي احتفلت بمقدم صاحب السعادة "محمد علي علوبه" باشا من رحلته الطويلة مع وفد المؤتمر الإسلامي العام). (١٢)

ولم تكن تلك الاحتفالات والاستقبالات مجانية أو للمحبة الخالصة، بل كان الإخوان يوثقون صلتهم مع علية القوم والجهات الرسمية من أجل إنشاء شُعب ومقرات جديدة، بصرف النظر عن مصرية تلك الجهات أو عدم مصريتها:

(تقدمت الجمعية لسعادة المحافظ السابق بالتماس رفعه سعادته للأعتاب الملكية بتوصيات شديدة للتكرم بإنشاء مسجد ببورفؤاد، وكان ذلك في سبتمبر ١٩٣٣، وفي فبراير سنة ١٩٣٥ قدم طلب لسعادة نائب المحافظ لإرساله إلى جناب البارون دي بنوا، مدير عام شركة القنال بالقاهرة، بالتماس ببناء المسجد على نفقة شركة القنال.

ولما رأت الجماعة أن هذا الموضوع قد طال الوقت عليه دون تنفيذ، تقدمت بالتماس آخر في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٥ إلى إدارة الشركة ببورفؤاد، منحنا أرضا في المربع ٩٦ لإنشاء مسجد خشبي عليها بصفة وقتية). [١٣]

وجميع الوقائع السابقة تقدم صورة لجماعة تستخدم كل الطرق والوسائل وعلى رأسها التزلف واستخدام العمال والجمهور الشعبي الفقير كديكور يحشد في المناسبات الرسمية لتحية جلادية، حيث يستخدم هذا الجمهور كمطية تعبأ بنظام يوحي بالقوة والهيبة ويلقي في روع الآخرين الإحساس بأهمية الإخوان المسلمون وقوة نفوذهم.

لقد كان الانتشار والصعود شغلهم الشاغل في ذلك الحين، مما صبغ مواقفهم بصبغة عملية بحتة، فراعوا عِلْية القوم وتملقوا السلطات وتجنبوا المواقف الصدامية، بل كانوا يمتصون روح المقاومة من العمال الذين ينجذبون إلى الجماعة.

وفي كثير من المواقع استغل الإخوان المسلمون العمال الموجودين بنفس المنطق الرأسمالي السائد.. نفس ساعات

العمل.. نفس الأجور وربما أقل بسبب صغر تلك المشروعات.

إذ كان من أُسس تواجد الجماعة أن تعمل على إنشاء (مصنع محلي صغير) يستخدم فيه الإخوان الأيدي العاملة المحلية في الإنتاج وتوفير المال اللازم لتمويل بعض أنشطة الجماعة.

وواضح أن العلاقة بين هؤلاء العمال وبين جماعة الإخوان كانت لا تختلف عن العلاقة بين العمال وملاك المصانع عموما.

الفارق الوحيد هو في صغر تلك المشروعات، حتى كادت أن تكون بيوتا مصنعية قزمية، أو مشروعات حرفية صغيرة.

لقد بنت الجماعة نفسها ودعمت وجودها بفائض عمل العمال الذين استخدمتهم في هذه المشروعات الصغيرة – إلى جانب الوسائل البرجماتية الأخرى التي سنعرض لها بعد ذلك – فأخذت بذلك دور المالك الصغير الذي يستنزف عماله ويقتطع من جهودهم كل ما يستطيع، مستعينا في ذلك بغطاء

ديني لا يغني من جوع ولا يغير جوهر العلاقة بين العامل وصاحب العمل.

* * *

وبعد أربع سنوات من عمر جماعة الإخوان المسلمون (وفي نهاية صيف عام ١٩٣٢ طلب حسن البنا نقله إلى القاهرة، وأجيب إلى طلبه). [١٤]

وهناك كون المركز العام للإخوان المسلمين. وقد حرص الإخوان على إنشاء مطبعة وتأسيس مجلة مركزية.

راحت تنشر دعايتهم وتوجه العمل في الشُعب المختلفة وتتابع إنشاء شُعب جديدة بنفس الأسس الهيكلية لتواجد الإخوان في أي منطقة، والقائمة على بناء مقر ومسجد ومصنع:

(في الأسبوع الفارط احتفل فرع شبراخيت بوضع حجر الأساس للمسجد والمصنع، واحتفلت المحمودية بافتتاح مصنع النسيج والسجاد التابع للجمعية، وترأس الحفلين سعادة بيومي نصار بك مدير البحيرة). [١٥]

وهكذا يتحول فقراء المنطقة إلى عمال في مصانع الأعيان أو في مصانع الإخوان لا فرق.. وقد تفاوتت هذه المصانع

بين مشروعات صغيرة ومشروعات متوسطة مع بداية انتفاخ جيب الجماعة، وسيلان العملة النقدية في خزائنها وأصبحت الجماعة تتحدث بثقة أكبر، وزعماؤها يعقدون الصفقات السياسية بقوة أكثر وضوحا.

لقد راحت الجماعة توثق علاقتها بالرأسمالية الكبيرة بصوت مسموع، إلى حد توجيه خطابات مفتوحة إليهم على صفحات الجرائد:

(إلى صاحب السعادة علي إسلام باشا:

أنتم من الإخوان المسلمون العاملين ولكم في مضماري المال والعمل شأن جليل.. والذي أعتقده أن جماعة من المصريين تضمكم وتضم أمثال الشناوي بك وطلعت باشا حرب ورجال العمل والخبرة بالأسواق، ومن أصحاب الفضل في النهضة الصناعية الملموسة بعد الحرب العظمى، إذا أهابت بالمصريين فإنهم يلبون النداء.

وإذا جعلت قيمة السهم عشرة أو أربعة من الجنيهات فغير بعيد أن يتجمع لها من المال ما تطلب بل ما يزيد). [١٦]

وحقيقة ما كان يحدث في مصانع الأصدقاء الروحيين للجماعة يمكن أن نقرأه في مذكرات العمال البسطاء مثل: "طه سعد عثمان" الذي عمل لفترة بمصنع نسيج "إسلام باشا في بني سويف" وهو نفس الرجل الذي يوجه الإخوان خطابهم السابق إليه.

ولنلاحظ الفرق بين الموقفين:

موقف الإخوان كجماعة سياسية، وموقف العامل البسيط، مع ملاحظة أنه يتحدث عن تجربة شخصية وأنه كان عضوا بجماعة الإخوان المسلمون في نفس الوقت.. ومع ذلك يقول:

(كانت القناعة والرضى بالقليل والأفكار الخاطئة عن الرزق والتي تلبس ثوب الدين وتدعو للاستسلام لكل ما هو سيء باعتباره قدرا لا مفر منه، كانت هذه هي النظارة السوداء التي حجبت عني وعن غيري من عمال مصنع نسيج إسلام ما كان نعانيه من قهر واستغلال). [١٧]

ولم تطل علاقة طه سعد بهذا المصنع الذي عرف فيه الاستغلال، وسرعان ما انتقل إلى القاهرة.

وسوف نعرض بعد ذلك لتطور علاقة "طه سعد عثمان" بالإخوان المسلمين، التي بدأت بالود الخالص ثم تحولت إلى

العداء الواضح؛ بفضل مواقف الإخوان ضد الطبقة العاملة وحركتها المطلبية.

وسنرى أنه لم يكن وحيدا في هذا الموقف حيث تبعه عدد كبير من عمال شبرا الخيمة.

*   *   *

الملك حائر والإخوان يتقدمون

رسخ الإخوان المسلمون علاقتهم مع كبار الملاك، كما رسخوها مع الملك عن طريق "علي ماهر"، رئيس الديوان الملكي ثم رئيس الوزراء بعد ذلك، وتوسعت شعبهم وراحوا يتباهون بإبراز عضلاتهم ونشر أخبار فرق الجوالة على الملأ. في الوقت الذي كانت كل الأحزاب السياسية تعاني من القمع الشديد بعد أن (عطل "إسماعيل صدقي" دستور ٢٣، وحل مجالس النواب والشيوخ، وألغى نظام التصويت المباشر، وألحق مكتب العمل بإدارة عموم الأمن بوزارة الداخلية..). (١٨)

ولم يستثن من هذه الإجراءات الصارمة سوى الإخوان المسلمين...!!!

وأخذت حكومات الأقلية من بعده نفس الموقف (أصدرت وزارة محمد محمود في ٨ مارس ١٩٣٨ مرسوما بقانون يحظر نشاط الجمعيات أو الجماعات التي يكون لها صور التشكيلات شبه العسكرية. وقد طبق ذلك القرار على فرق القمصان الزرقاء الوفدية، وفرق القمصان الخضراء التي

أنشأتها جماعة مصر الفتاة، دون أن يمتد هذا الخطر إلى فرق الجوالة التابعة للإخوان). [١٩]

أما وزارة "علي ماهر" الثانية في أغسطس ١٩٣٩ فكانت: (فاتحة لعهد الامتيازات وحرية الحركة للإخوان. ولقد انتعشت الحركة بالفعل فراحت تعقد المؤتمرات في القاهرة والأقاليم فضلا عن نشر الدعوة بحرية مطلقة دون أن يكون هناك ما يعكر صفو الحركة. يضاف إلى ذلك ما تلقاه الإخوان من عون مادي من المصروفات السرية لوزارة الداخلية التي كان يتولاها علي ماهر إلى جانب رئاسته للوزارة). [٢٠]

ومن كثرة المساعدات التي تلقاها "حسن البنا" فاحت رائحتها كما يقولون، وأثريت عنها التساؤلات داخل الجماعة مرات عديدة، مما اضطر "البنا" إلى عقد اجتماع خاص للأعضاء يبرر لهم فيه موضوع المساعدات وموقفه من حكومات الأقلية، (وقد قدم للأعضاء التفسير المعتاد والتقليدي القائل: بأن الجماعة لا تعارض ولا تؤيد أية حكومة مهما كان؛ ذلك لأن الجماعة ليست حزبا سياسيا بالمعنى الشائع والسائد لتلك الكلمة، وكل ما حصلت عليه الجماعة من أموال

من حكومة صدقي هو مساهمة حكومية مشروعة في أنشطة الجماعة الخيرية). [٢١]

ولكنه تبرير واه.. ومنطق ضعيف.. لا يكاد يستر حقيقة العلاقة بين رأسمالي طاغية ومنظم سياسي.. خصوصا وأن الأمر تعدى شخص "صدقي" إلى رؤساء حكومات الأقلية الآخرين، وبعض رموز الرأسمالية المستقلة غير الحكومية.

(وبفضل الصلة الوثيقة مع علي ماهر والبلاط حصل البنا منهما على مساعدة مالية، وتمتع بحماية البوليس، وكانت له صلات مع صالح حرب وعبد الرحمن عزام وعزيز المصري الذين كانوا يريدون استخدام كل التجمعات الإسلامية القومية، خاصة الإخوان المسلمون في تحقيق مآربهم). [٢٢]

* * *

ولا يمكن أن نفصل الآن فيمن سعى إلى الآخر.. الملك والسراي وأحزاب الأقلية هم الذين سعوا إلى الإخوان.. أم العكس...؟

ولو أن معظم المؤرخين يميلون إلى أن الإخوان المسلمون قد استدرجوا في تلك الفترة ليكونوا الذراع الضاربة لأحزاب

الأقلية والملك، وأنهم (لم يدركوا خطر هذا التحالف الذي أجبروا عليه).[٢٣]

ولكني لا أعتقد في هذا الاستدراج والإجبار.. لإن تاريخ الإخوان مليء بالتحالف مع الحكومات والأحزاب المختلفة، وفي كل مرة يحددون هدفهم في الصعود على أكتاف الحليف.. وفي كل مرة ينقلب الحليف ضدهم بعد أن يستخدمهم ويستخدموه.

والواضح تاريخيا أن جميع الأطراف كانت في أشد الحاجة إلى بعضها البعض في ظل حالة الميوعة الحزبية واشتداد الغضب الشعبي.. فأحزاب الأقلية تبدو كأحزاب معلقة في الهواء معزولة عن الجماهير.

وتقارير البوليس تؤكد على خطورة الأوضاع الاجتماعية.

والملك حائر بين كل ذلك يريد سندا لعرشه.. ويتلفت حوله فلا يجد سوى أحزاب الأقلية التي تحتاج بدورها إلى سند.

إنه يبحث عن قوة يناور بها الإنجليز، ويلوح بها في وجه حزب الوفد، ويقيمها سدا أمام الغضب الشعبي والعمالي إذا ما تفجرت الأمور.

أما من ناحية الإخوان فقد كانوا يحتاجون في فترة توسعهم الأول إلى تغاضي الحكومة عن نشاطهم الآخذ في الانتشار، في نفس الوقت الذي لم يكن لديهم أية عوائق فكرية للتلاقي مع الملك وحاشيته.. فصفقوا له كثيرا وأحاطوه برداء إسلامي – حتى ولو كان مشهورا بالاستهتار وسوء السمعة.

وكما رأينا من قبل – كيف تعاونوا مع الملك فؤاد الأول، واتخذوا من وريثه خليفة، وخرجوا يهتفون ويقسمون له بالولاء.

(نهبك ولاءنا على كتاب ا وسنة رسوله). (٢٤)

وسموه بالفاروق كناية عن الفاروق عمر بن الخطاب.

ولقبوه بالمليك المفدى، وغيرها من كلمات العشق التي ملأت جرائدهم بجوار صوره وصور عائلته..!!؟

والنتيجة الأخيرة أن الأطراف الثلاثة (الإخوان المسلمون – الملك – أحزاب الأقلية) تلاقت حول أهداف معينة، وصارت التقارير والرسائل والمقابلات الشخصية متداولة مباشرة بينهم وبين أجهزة الحكم.

(وفي حديث لـ "سمارت" – الإنجليزي – مع حسن رفعت، وكيل وزارة الداخلية، حول ذلك أبدى الأخير أنه

ليس هناك ضرر من أن يعطي فاروق لهم بعض التشجيع لإنهم أحسن أداة لمحاربة الشيوعية. وكان ذلك فعلا ما يقصده فاروق؛ إذ سبب له النشاط الشيوعي الذي أخذ في الانتشار قلقا بالغا، هذا الخطر الذي كان يخشاه أيضا الإخوان). [٢٥]

شبرا الخيمة تلفظ الإخوان

يدعي "محمد شريف" الرئيس السابق لشعبة العمال في جمعية الإخوان المسلمون "أن لجنة عمالية كانت قد تأسست على يد الجماعة في شبرا الخيمة في أواخر الثلاثينات". [٢٦]

وفي الحقيقة أن كثيرا من الغموض يدور حول تاريخ شعبة شبرا الخيمة. حيث انتقل البنا إلى القاهرة عام ١٩٣٢م، وفي عام ١٩٣٣ م بلغت شُعب الإخوان في كل القطر المصري خمسة عشر شعبة – حسب البيان المنشور في جريدة الإخوان – وهي شُعب:

(القاهرة – الإسماعيلية – بورسعيد – أبوصير – البلاح – شبراخيت البحيرة – محمودية البحيرة – المنزلة دقهلية – الجمالية دقهلية – ميت مرجا دقهلية – شبلنجة قليوبية – طنطا والسويس) [٢٧] ولا تحتوي القائمة السابقة شعبة لشبرا الخيمة، بل إن مطالعة الجريدة لسنوات عديدة تالية، ولا يرد بها أي ذكر لمثل هذه الشعبة أو لأي نشاط إخواني في تلك المنطقة، ولكن نجد ذكر شعبة "شبرا فقط.. والمنطقة التي تحمل هذا الاسم تختلف عن منطقة شبرا الخيمة ويبدو أن

كلام "محمد شريف" السابق يستمد قوته من الجهل العام بتفاصيل التاريخ القديم للجماعة.. بالإضافة إلى الرغبة في إظهار قوتهم المتوهمة ونشاطهم العمالي المبكر.

وسواء كان تاريخ تأسيس شعبة شبرا الخيمة صحيحا أم غير صحيح فمن الواضح أن تكوينها قام في البداية على نفس أسس الشُعب الأخرى، بالحرص على الانتشار في الأحياء الشعبية الفقيرة، وجذب الجمهور الرازح تحت ضغط الحاجة والفاقة بالدروس الدينية والدعوة إلى الصلاة. وجمع التبرعات من أجل بناء مدرسة وجامع ومصنع يدر الربح على الجماعة.

وربما يكون بعض العمال قد عرفوا طريقهم إلى الجماعة عبر النزعة الدينية: الدروس أو العلاقات الشخصية.. ولكن هل يمكن أن نسمى مثل هذه العلاقة نشاطا عماليا..؟

الآن يدعي الإخوان أنهم كانوا أصحاب نفوذ وتأثير واضح على عمال شبرا الخيمة عن طريق: "محمد يوسف المدرك ومحمود العسكري وطه سعد عثمان، وهؤلاء العمال الثلاثة بالتحديد عرفوا بتاريخهم الشيوعي وإندراجهم في

جماعة "طليعة العمال".. فما حقيقة موقف هؤلاء الفرسان الثلاثة..؟

هل بدأوا إخوانا وانتهوا شيوعيين؟

وهل لعبوا دورا في يوم من الأيام وسط عمال شبرا الخيمة له صفة إخوانية..؟

ومن خلف هؤلاء الثلاثة كانت تقف المنطقة العمالية التي تضم حوالي ٢٠ ألف عامل يتحركون في إضرابات متوالية.

فهل كان للإخوان نفوذ سياسي أو فكري وسط الحركة العمالية هناك؟

هناك روايتان.. واحدة منهما لطه سعد عثمان، العامل المشارك في كل الأحداث، والثانية لمحمد شريف، رئيس شعبة العمال لدى الإخوان المسلمين.

ويدعي "محمد شريف" أن طه سعد ظل في الجماعة كعضو متجانس منذ أواخر الثلاثينات وحتى نهاية ١٩٤٣ م.[(٢٨)]

ومن الطريف ألا نعثر في مذكرات "طه سعد" على أية إشارة لنشاط نقابي عمالي قام به بدعم أو توجيه من الإخوان، وما يذكره عن أول عمل نقابي قام به كان في

مصنع "هنري بيار" بعد انتقاله إلى القاهرة، وكان ذا طابع "سنديكالي" صرف ولا علاقة له بأية أفكار إخوانية وهو نفسه يقول: (في يوم ٨ مايو ١٩٣٨ وكانت معرفتي بالنقابة لم تتعد أياما قليلة، سمعت عن مظاهرة ينظمها عمال جميع المهن والصناعات للمطالبة بالقوانين العمالية، وذهبت في صبيحة ذلك اليوم إلى دار اتحاد النقابات أمام جامع أولاد عنان بشارع الجمهورية، والذي كان به مقر نقابة عمال النسيج الميكانيكي بالقاهرة وضواحيها، خرجت من دار اتحاد النقابات بزعامة النبيل عباس حليم). [٢٩]

ومنذ ذلك الحين التحم طه سعد بالنشاط النقابي الذي يرتبط بالحركة العامة لعمال النسيج في شبرا الخيمة، وكان قوام هذا الفرع الصناعي حوالي تسعة آلاف عامل (كما كان بالمنطقة من عمال الصناعات الأخرى ما يكمل عماله مع عمال النسيج حوالي العشرين ألف عامل..). [٣٠]

ومن الأرجح أن "طه سعد" كان فعلا عضوا بجماعة الإخوان المسلمون حتى عام ١٩٤٣، وعلى إثر ازدياد المواقف الإخوانية المعادية لنهر الحركة العمالية. خرج من الجماعة دون عودة ثانية.

ونفس الشيء ينسحب على التاريخ المنسوب إلى محمود العسكري، الذي يدعي "محمد شريف" أنه كان عضوا متعاونا مع الإخوان في الفترة من أواخر الثلاثينات وحتى ١٩٤٠، وتاريخ "العسكري" هو تاريخ التحام وثيق مع النشاط العمالي من أجل الاعتراف بالنقابات وإنشاء حزب للعمال والحصول على الحقوق الاقتصادية المختلفة، وكان العسكري أحد قادة مظاهرة ٨ مايو ١٩٣٨ تحت زعامة النبيل عباس حليم، كما كان سكرتير مساعد الاتحاد العام لنقابات عمال المملكة المصرية بزعامة النبيل حليم أيضا. أما "محمد يوسف المدرك" أقدم الفرسان الثلاثة نشاطا، فنجد له مقالا مبكرا في عام ١٩٣٣ بمجلة: (النذير) تحت عنوان "طبقات مظلومة – العمال في ميزان الوزارة" تعليقا على بيان وزير المالية الذي ينفي فيه وجود أزمة العمال العاطلين لعدم وجود عمال بمصر.

فهل يمكن أن يكون مثل هذا المقال دليل على علاقة بين المدرك والإخوان؟

إذا كان الأمر كذلك.. فكيف نبرر وجود مقالات متعددة للمدرك في الجرائد المختلفة، بل كيف نبرر حواره المنشور بجريدة الأهرام ذات الميول الرجعية.

والأقرب إلى المنطق أن المدرك كان يحاول بث أفكاره النقابية من خلال كل المنافذ الإعلامية الموجودة، دون أن تحسب حركته على حزب أو تيار بعينه سوى حزب العمال الذي تم تكوينه فعلا في أول مارس ١٩٣٨ تحت زعامة النبيل عباس حليم، وانتخب المدرك وكيلا أول له. وكان الإخوان ضد فكرة تكوين حزب للطبقة العاملة.. بل كانوا ضد وجود الأحزاب جميعا، وفي غمرة الصراع السياسي كانوا يعلنون: (الآن وقد وجبت الدعوة للعمل بالطرق الممكنة -وكل الطرق ممكنة- لحل هذه الهيئات الحزبية جميعها، ولإقامة الشريعة الإسلامية حكما على مصر). [(٣١)]

ولقد أحس العمال الذين كانوا في علاقة مع الإخوان المسلمون بعدم الرضا، حيث كانوا يقعون في تناقض واضح مع أفكار الإخوان، ولذلك فقد (التقوا في المركز الرئيسي وقرروا دفع قضايا العمال في مؤتمر ٢٢ أغسطس ١٩٣٨

ومناقشة الأوضاع العمالية السيئة وإمكانية تشكيل حزب للعمال). [٣٢]

وبالطبع لم يوافق هذا الاجتماع وقراراته هوى القيادات الإخوانية، فتجاهلت مطالب أصدقاء العمال.

وانغمس عمال شبرا الخيمة في تشكيل "اتحاد عمال الغزل الميكانيكي" وكان المدرك ومحمود العسكري وطه سعد، ثلاث مولدات للحركة والنشاط في هذا الاتحاد المعروف بميوله اليسارية.

وكلما تصاعدت الحركة العمالية وتعددت أساليبها زادت حدة الشقاق بين العمال والإخوان، وحدث بينهما فراق لا رجعة فيه.

وإذا نظرنا مثلا إلى رد فعل الإخوان على حركة الإضرابات المتوالية، ومنها الإضراب عن الطعام حينما (اجتمع ثمانية من العمال بمنتزه الملكة فريدة وهم: محمد يوسف المدرك – لبيب تادرس – عبد المقصود يوسف – عباس يوسف – علي صالح درويش – عبد الوهاب محمد – لبيب زكي فهمي – علي ريحاني – وعلي المراكبي). [٣٣]

سنجد أن صالح العشماوي، عضو مكتب الإرشاد، يرسل في اليوم الثالث للإضراب برقية باسم الإخوان ينصح فيها العمال بالعدول عن خطة الإضراب، ثم نشرت الجماعة مقالا يعبر عن وجهة نظرها جاء فيه: (نحن لا نوافق على هذه الوسيلة، وسيلة الإضراب عن الطعام حتى الموت، لأنها تتنافى وتعاليم الإسلام، وننصح للعمال باتخاذ وسيلة أخرى، وحسبهم أن لفتوا نظر الوزراء والأمة). [٣٤]

وفي عدد تالٍ، تظل التعليقات على قضية إضراب العمال عن الطعام مثارة بنفس منطق تكفير العمال الذي يغلب سلب الروح النضالية وإغراقها في غلالة الشفقة والعطف:

(العمال المساكين لا يمتلكون من أدوات الكفاح غير قلوب عامرة بالإيمان بعدالة قضيتهم). [٣٥]

وكان العمال يمتلكون ما يحرج أصحاب الأعمال ورجال الدولة.. ويستخدمون أسلحتهم بنجاح واضح.. بينما الإخوان يسلبونهم تلك القدرات في دعايتهم..!!!

* * *

وتنتهي الثلاثينات ووعي العمال بحقوقهم في اطراد ملحوظ.

وفي الأربعينات بدأت الأفكار الشيوعية تعرف طريقها إلى الحركة العمالية الغاضبة، وانجذب إليها العمال النشطين.. مما شكل قلقا بالغا لأصحاب المصانع والحكام.

وبدأ الإخوان بعد ذلك في ممارسة التواجد في المناطق العمالية الساخنة بروح حادة تهدف إلى تسكين النضال العمالي المتصاعد.

وفي عام ١٩٤٤ تكونت شعبة للعمال في مقر الإخوان الرئيسي بوسط العاصمة، وهي شعبة مركزية تهتم بشئون العمال في عموم القطر المصري، وذلك بعد أن تصاعدت حدة الإضرابات العمالية في عموم القطر أيضاً:

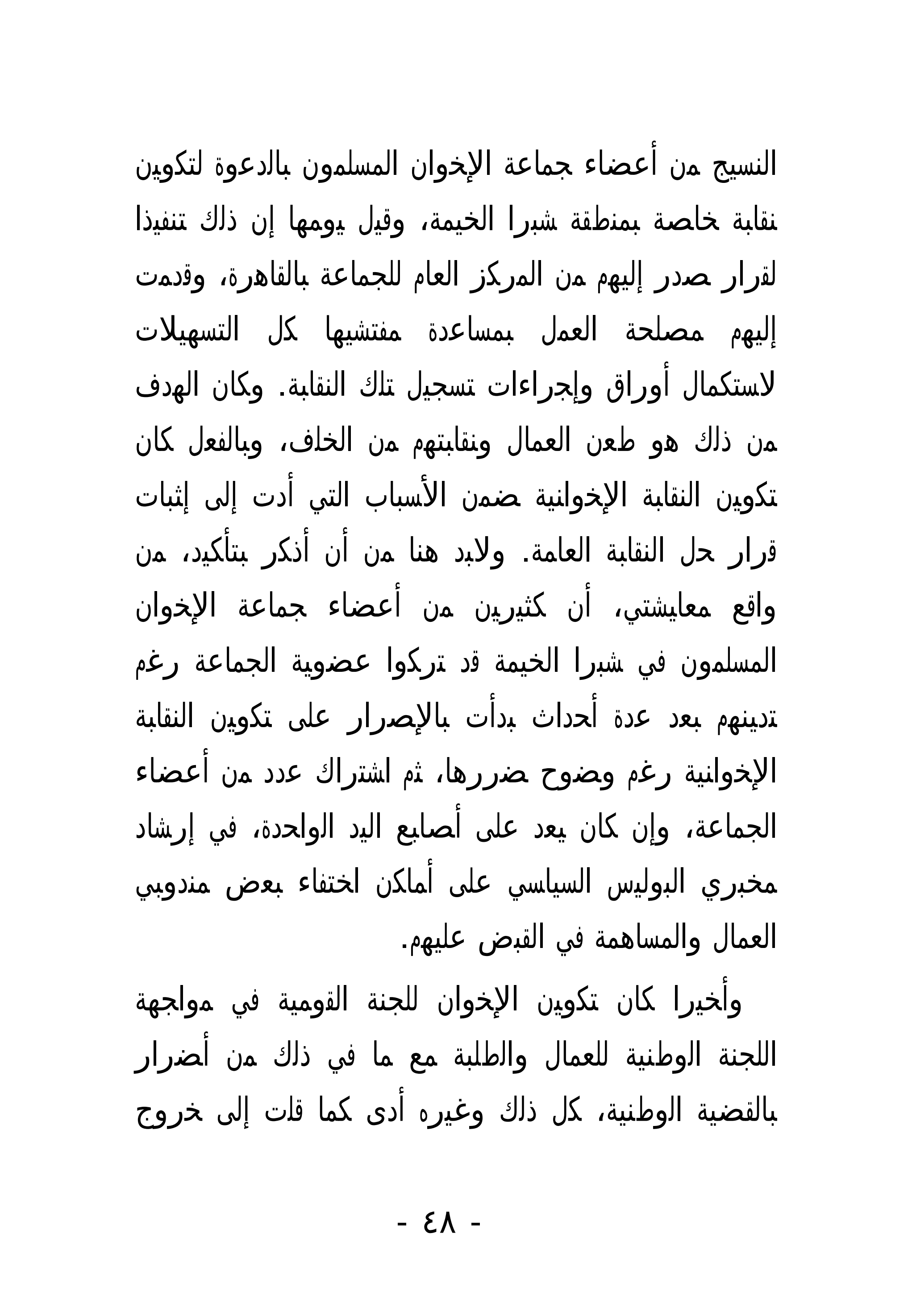
في القاهرة – الإسكندرية – المحلة الكبرى – الإسماعيلية وفي مصانع السكر بالحوامدية وأعلنت صحف الجماعة أن:

(الغرض من إنشاء هذا القسم ليس التدخل في شئون العمال النقابية، ولا التنافس مع الهيئات العمالية. أو التعرض لهم في مصانعهم أو شركاتهم.. ولكن حتى تكون دافعا لتمسكهم بتعاليم الدين.. وكان ذلك تعبيرا عن مخاوفهم من تسرب المفاهيم اليسارية إلى هذه الفئة). [٣٦]

وبرغم هذا الإعلان الحيادي.. إلا أن سلوك الإخوان كان على العكس يحاول التدخل في الحركة العمالية ويحاول أن يجرف مسارها إلى اتجاه آخر.

وتمادى الإخوان في الهجوم على قادة اتحاد عمال الغزل الميكانيكي، وخصوصا الهجوم على محمد يوسف المدرك زعيم الإضراب عن الطعام ورئيس الاتحاد العام، والهجوم على محمود العسكري سكرتير الاتحاد، أما طه سعد عثمان فقد تأخر خروجه من الجماعة حتى نهاية عام ١٩٤٣، وهو يذكر أسباب مفارقته للجماعة وعداءه لها على إثر اكتشاف حقيقة دور الإخوان في المنطقة ومحاولتهم تخريب الإضرابات والنقابة فيذكر أنه:

(بعد نحو شهرين من حل النقابة العامة، وبعد أن ثبت فشل كل ما أرادت تحقيقه الجهات المعادية للعمال من وراء حل النقابة بما فيها مصلحة العمل وأصحاب الأعمال وأجهزة الحكومة المختلفة، وبعد أن قبضت لجنة المندوبين العامة على زمام القيادة العمالية في المنطقة بشكل جعل حركة العمال الكفاحية تستمر بنفس الدرجة التي كانت عليها قبل حل النقابة، بل وتطورت إلى الأمام، عند ذلك قام عمال



النسيج من أعضاء جماعة الإخوان المسلمون بالدعوة لتكوين نقابة خاصة بمنطقة شبرا الخيمة، وقيل يومها إن ذلك تنفيذا لقرار صدر إليهم من المركز العام للجماعة بالقاهرة، وقدمت إليهم مصلحة العمل بمساعدة مفتشيها كل التسهيلات لاستكمال أوراق وإجراءات تسجيل تلك النقابة. وكان الهدف من ذلك هو طعن العمال ونقابتهم من الخلف، وبالفعل كان تكوين النقابة الإخوانية ضمن الأسباب التي أدت إلى إثبات قرار حل النقابة العامة. ولابد هنا من أن أذكر بتأكيد، من واقع معايشتي، أن كثيرين من أعضاء جماعة الإخوان المسلمون في شبرا الخيمة قد تركوا عضوية الجماعة رغم تدينهم بعد عدة أحداث بدأت بالإصرار على تكوين النقابة الإخوانية رغم وضوح ضررها، ثم اشتراك عدد من أعضاء الجماعة، وإن كان يعد على أصابع اليد الواحدة، في إرشاد مخبري البوليس السياسي على أماكن اختفاء بعض مندوبي العمال والمساهمة في القبض عليهم.

وأخيرا كان تكوين الإخوان للجنة القومية في مواجهة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة مع ما في ذلك من أضرار بالقضية الوطنية، كل ذلك وغيره أدى كما قلت إلى خروج

عدد كبير من المتدينين المسلمين في شبرا الخيمة من جماعة الإخوان المسلمين). [٣٧]

وأصبح موقف الإخوان المعادي للحركة العمالية لا يخفى على أحد، خصوصا بعد إضراب يونيو ١٩٤٦ الذي اشترك فيه حوالي ١٥ ألف عامل بقيادة اتحاد عمال الغزل الميكانيكي، وقادته من طليعة العمال في تحد واضح للأحكام العرفية والحكومية ورأس المال، وراح إسماعيل صدقي رئيس الوزراء يبحث عن طريقة لإجهاض الإضراب، فاتصل بحامد العبد، وكيل مصلحة العمل، يطلب منه سرعة التصرف – مع العلم أن رئيس مصلحة العمل كان المستر "جريفز" رجل الأمن البريطاني – واتصل العبد بدوره بمحمد شريف مسئول قسم العمال في جماعة الإخوان، وطلب منه استخدام نفوذ الإخوان لتخريب الإضراب. فما كان من الإخوان إلا أن نشروا تقريرا يقول: إن مفوضي العمال أعلنوا عن عزمهم كسر الإضراب والعودة إلى العمل، ولم يكن هذا العمل صحيحا مما أحدث بعض البلبلة في صفوف العمال، ثم دعا الإخوان لعودة العمال إلى مصانعهم وأعمالهم

في الحال، وطالبوهم بأن يوقعوا على عريضة كسر الإضراب التي أعدها ملاك المصانع.

وراحت دعايتهم وجرائدهم تطارد قادة العمال وتطلق عليهم اسم محترفي الشغب والعناصر الهدامة والمخربين. ورفض معظم العمال التوقيع على عريضة كسر الإضراب. وقام بعض أعضاء جماعة الإخوان بالتعدي على العمال بالقوة، ويقول طه سعد عثمان:

(بعد فشل إسماعيل صدقي عدو الشعب رقم واحد ورئيس الوزراء وقتئذ، في احتواء اللجنة أو ضربها من الداخل، لجأ إلى تكوين هيئة موحدة للجنة الوطنية مستعينا بجماعة الإخوان المسلمون وبعض الهيئات التي صدقت ما أعلنه "صدقي" عن تخليه عن ماضيه السياسي القديم واستعداده لفتح صفحة جديدة يتبنى فيها قضية الشعب الوطنية فكان أن نجح في تكوين ما أسموه "اللجنة القومية العامة".

وهنا تجب الإشارة إلى أن جماعة الإخوان المسلمون ممثلة في مرشدها العام المرحوم الشيخ "حسن البنا"، كانت قد أصدرت بيانا انتهى بمطالب وطنية، وسلمه وكيل الجماعة "أحمد السكري" إلى مكتب رئيس الوزراء، ولكننا وجدنا

الإخوان المسلمون وبعد ثلاثة أيام فقط من إصدار هذا البيان الوطني يقفون عمليا موقفا معاكسا لهذا البيان ومتخليا عما تضمنه ومؤيدا لإسماعيل صدقي رئيس الوزراء. بل إن اللجنة القومية التي كان الهدف الأول من تكوينها هو تفتيت القوى الوطنية وإيجاد الصدام بينها بدلاً من تجميع كل القوى لمواجهة الاحتلال، هذه اللجنة القومية العامة قد تكونت وعقدت اجتماعها وباشرت نشاطها من دار جماعة الإخوان المسلمين.

واتضح موقف جماعة الإخوان المسلمون أكثر بعد أن نادت بعدم القيام بالمظاهرة الصامتة في يوم الشهداء ٤ مارس ١٩٤٦ ولكنها ما لبثت أن أعلنت بأن اللجنة القومية قد أدت مهمتها وأن الإخوان لم يعودوا يرتبطون بأية هيئة ولا علاقة لهم بأي بيان يصدر باسمها). [٣٨]

ومنذ ذلك التاريخ انتهى أي وهم في تضامن الإخوان مع حركة الطبقة العاملة، وأي وهم في إمكانية دفاعها عن مصالح العمال.

وصدرت عدة بيانات عمالية تفضح هذا الدور الإخواني ومنها بيان مؤتمر نقابات القطاع الخاص الذي أعلن في وضوح:

(اليوم أصبحت نية جماعة الإخوان المسلمون واضحة أمام الشعب وهي تنادي بالفتنة الطائفية وتهدف إلى انقسام صفوف الشعب من أجل الإمبريالية ومن أجل النضال ضد لجنة الطلاب العامة التنفيذية، وذلك باستعمال العصي والوسائل الفاشية ضد عمال شبرا الخيمة.

ونظرا لهذا يعلن مؤتمر نقابات القطاع الخاص إدانة هذا الاعتداء ضد الطلاب والعمال الوطنيين الجادين، ويعلن مؤتمر نقابات القطاع الخاص أن هذا المؤتمر ومنظمات عمالية أخرى في كل البلاد تدعم اللجنة الوطنية للعمال والطلبة وتحذر الزملاء العمال من الاندماج في أي لجنة شكلت من جانب الإخوان المسلمين.

والعامل الذي انضم إلى أي لجنة من لجانهم لا يمثل إلا نفسه). [٣٩]

وبالفعل كان الإخوان يعملون بأيديهم وأسنانهم لاجتذاب قيادات عمالية جديدة بدلا من هؤلاء الذين فارقوهم إلى الأبد.

فحاولوا تجنيد "أحمد الشناوي" عضو اللجنة النقابية بأحد مصانع الغزل والنسيج، لكنه رفض الانضمام إليهم، ووسع دائرة التشهير بهم، فصدر على إثر ذلك قرار بفصله من العمل. مما شكل مفاجأة له وللعمال المحيطين به.

وحدثت حركة تضامن واسعة مع هذا القائد النقابي، وامتنع زملاؤه عن العمل واحتلوا المصنع مطالبين بعودته. ووعدت الإدارة بأنها ستلبي مطالبهم. وظهر في الصورة "حامد العبد" وكيل مصلحة العمل الحكومية المشبوهة، ووعد هو الآخر بأن الشناوي سيعود.. لكن مر ستون يوما والشناوي لا يزال خارج عمله. وألقى هذا الحادث ظلا أسود على اسم الإخوان المسلمون في مصانع الغزل والنسيج، بالإضافة إلى الظلال القاتمة الأخرى التي حدثت نتيجة تورطهم مع صدقي في محاولة إجهاض إضراب العمال ومحاربة اتحاد نقابات الغزل الميكانيكي، وما ترتب على ذلك من طرد القادة والقبض عليهم ونفي الكثير منهم إلى قراهم البعيدة.

والملاحظة الأساسية لفهم الأوضاع العمالية في تلك الفترة هي استخدام الآلاف من العمال أثناء الحرب العالمية الثانية،

وحدث نتيجة هذا الاستخدام المشجع نزوح آلاف المزارعين المعدمين إلى المدن.. (كانت الورش والمرافق التابعة لجيش الحلفاء تستخدم أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ عامل مصري، من بينهم حوالي ١٠,٠٠ من الكتبة، وحوالي ٨٠,٠٠ من العمال المهرة وأشباه المهرة...).[٤٠]

وبعد انتهاء الحرب استغنت تلك الورش عن العمال، مما أدى إلى حدوث بطالة (قدرت بما يزيد على ٢٥٠,٠٠٠ عامل وإلى المزيد من الإفقار) بالإضافة إلى إفلاس بعض الصناعات الأهلية، واستمرار ارتفاع معدل الأسعار، وخفض الأجور مع استمرار تفاقم الأزمة الوطنية العامة، ووجود الاحتلال البريطاني.

كل هذه العوامل ساعدت على انتعاش جماعات سياسية جديدة.. فانتعشت الأفكار الاشتراكية في أوساط العمال والطلاب وجن جنون الرأسماليين من هذا التلاقي.

واستخدموا كل الوسائل في الهجوم على الطرفين.. وربما ضخمت شدة هجومهم من حجم الحركة الفعلية للمنظمة الشيوعية الموجودة آنذاك.. فصورتها وكأنها مارد يستعد

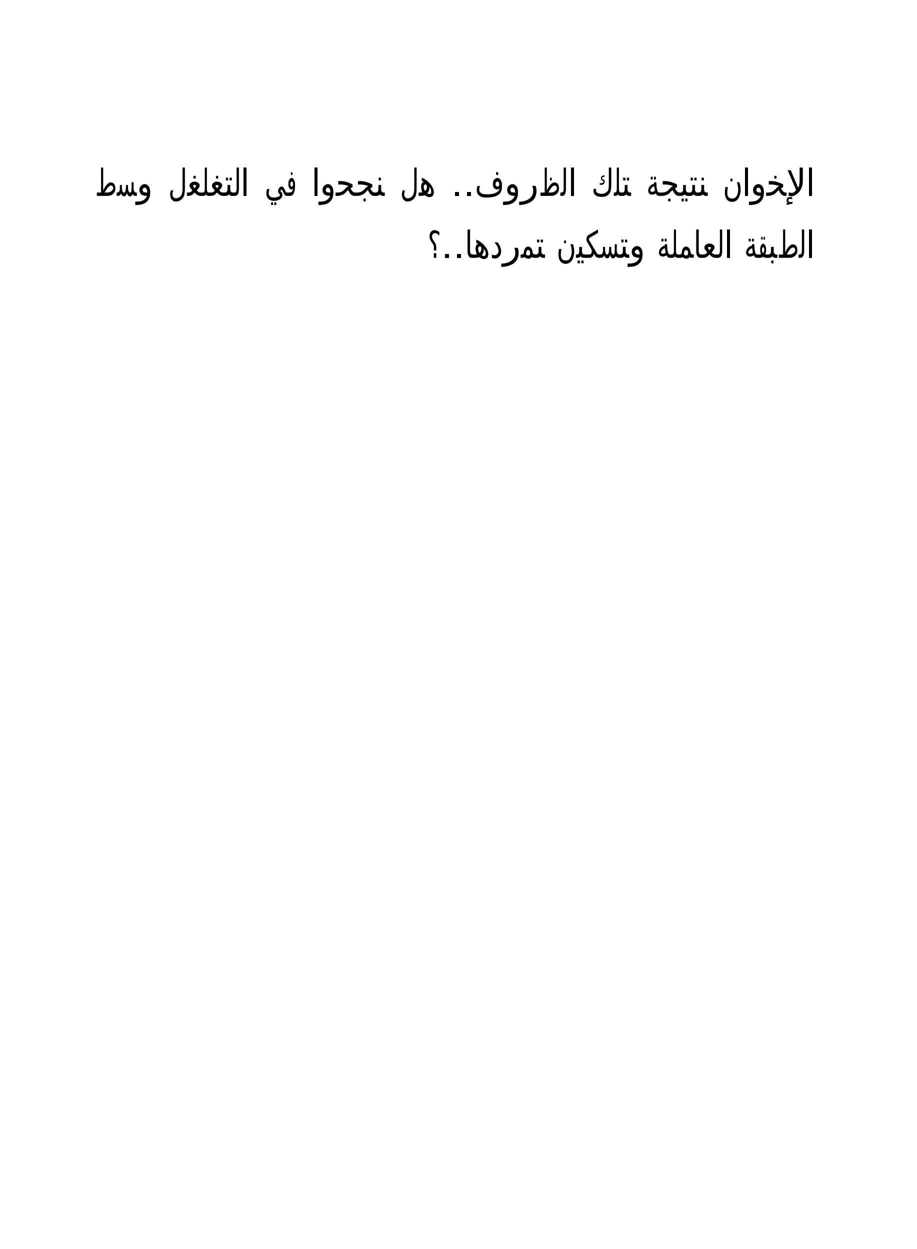
للانقضاض على الحكم.. وكان الأمر أقل مما صورت لهم أوهامهم ومخاوفهم وارتعاد مفاصلهم.

وأدت شدة الإحساس بالخطر إلى زيادة تقديم المساعدات لجماعة الإخوان وفتح كل أبواب التسهيلات لهم، ومنحهم ترخيص إصدار جريدة يومية تلاحق الحركة العمالية، وتصب نار الهجوم على الأفكار الشيوعية ابتداء من مايو ١٩٤٦ عقب المظاهرات العمالية للطلاب الضخمة في فبراير ومارس ١٩٤٦، ومنحهم امتيازات في شراء ورق الطباعة بالأسعار الرسمية – وكأنهم جريدة حكومية صرفة – مما يعني توفير من ٢٠ إلى ٣٠ بالمئة من أسعار السوق السوداء، وامتيازات مخصصة للجوالة، واستخدام الزي القومي الذي يتم شراؤه بسعر مخفض، واستخدام المعسكرات والتسهيلات الحكومية، ومنحها قطعا من الأرض لإقامة المباني اللازمة في المناطق الريفية). [٤٢]

وربما نقرأ صورة خوف حكومات الأقلية من الحركة العمالية واحتمال اقترانها بالأفكار الاشتراكية من خلال حوار إسماعيل صدقي مع مفاوضيه الإنجليز عقب الحرب العالمية الثانية حيث يقول لهم:

(أنتم لا تدركون تماما – على ما يظهر لي – الوضع السياسي في البلاد، وكيف يتأثر تأثرا خطيرا بالتصميم على أوضاع هي مهما صورتموها وحاولتم صبغها بصبغة تظنونها مقبولة، فهي الاحتلال بعينه، بل الاحتلال الذي لا لزوم له، إن البلاد في حالة غليان فكري، وإذا كان هذا الغليان لم ينتقل بعد إلى حالة من العنف فالفضل في ذلك للإجراءات والتدابير التي تقوم بها الحكومة. نعم إن بالبلاد هيئات متعددة متنوعة وكلها في حالة تحفز، ومن هذه الهيئات ما هو سياسي، ومنها ما هو لطوائف صاخبة كالطلبة والعمال، ومنها هيئات متعددة اشتراكية واجتماعية، من أولئك الراغبين في تحسين أحوال الطوائف الفقيرة، ومنها الهيئات السرية للشيوعيين وغير الشيوعيين كل هذا ينذر بانفجار إذا لم تُجب مطالب البلاد). [٤٣]

وهكذا نرى أن مجرد إمكانية التلاقي بين الحركة العمالية والأفكار الاشتراكية تثير فزع الرأسمالية وتدفعها إلى البحث في جرابها عن مضاد جماهيري لهذه الصحوة العمالية ذات الوعي المتقدم.. وبعد كل التسهيلات التي حصل عليها



الإخوان نتيجة تلك الظروف.. هل نجحوا في التغلغل وسط الطبقة العاملة وتسكين تمردها..؟

روشتة الإخوان لإنقاذ الرأسمالية

احتفظ الإخوان بصداقات وثيقة مع عتاة الرأسماليين القابضين على مراكز رؤوس الأموال والمشَغلين لجيوش العمال.

احتفظوا بصداقة "علي ماهر" الذي كان عضوا في مجالس إدارات شركات أجنبية كثيرة، ومدير البنك الأهلي.

وأحمد ماهر رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكي، وصالح حرب ومحمد سالم الصناعي الكبير، ومحمد علي علوبة باشا، وعلي إسلام باشا ومحمد محمود باشا وإسماعيل صدقي.

وهذا الأخير الذي قدم أكبر المساعدات لهم كان عضوا في مجلس إدارة شركة قناة السويس، ومجلس إدارة بنك مصر وشركة كوم امبو وشركة الغزل والنسيج في الإسكندرية، ورئيس مجلس إدارة شركة المعادن المصرية، وهو مؤسس اتحاد الصناعات أو اتحاد الرأسماليين وكان (يضم عند تأسيسه نحو تسعين عضوا من أصحاب الأعمال الوطنيين والأجانب يشتغلون برؤوس أموال تقدر بأكثر من

أربعين مليون جنيه مصري وقد عرف عن هذا الاتحاد مقاومته الشديدة لصدور تشريع عمالي مصري). [٤٤]

هذا الرجل الذي كان يعد – رأس الرمح للرأسمالية المصرية المتجهمة – والعضو في مجلس إدارة عشرين مشروعا صناعيا. تولى رئاسة الوزراء عدة مرات وفي مايو ١٩٤٥ بعد توليه الوزارة من جديد، وضع الشعب يده على قلبه – ترى ماذا سيفقد من حريات، وماذا سيفرض عليه من قوانين متجهمة جديدة..؟

وحاول صدقي في البداية أن يبذر الوعود، فأعلن في خطاب له أمام ممثلو العمال:

(إن صدقي الجديد غير صدقي القديم.)

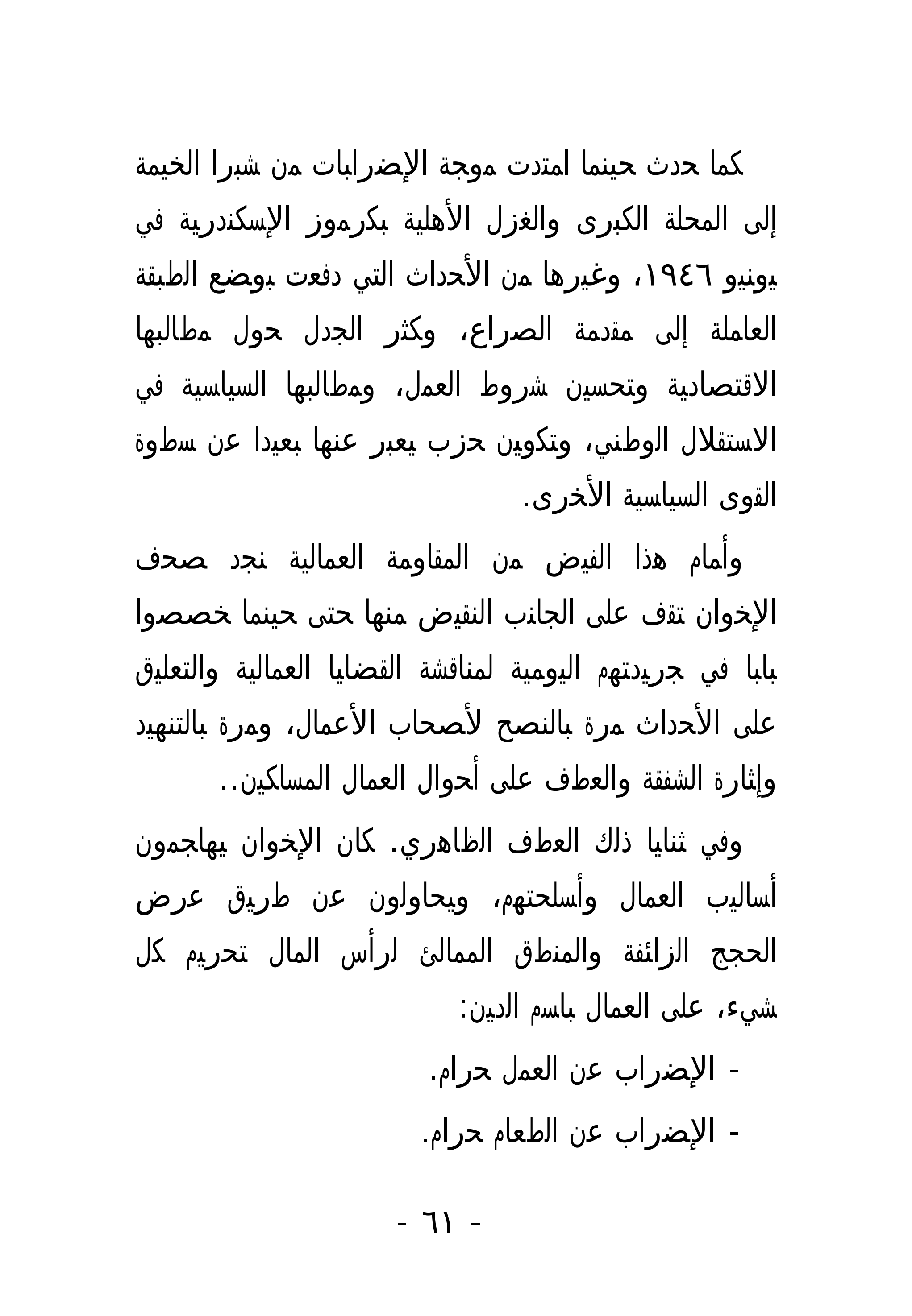
لكن أحدا لم يصدق هذا الوجه الجديد المغسول بصابون "نابلسي شاهين" والمطل عليهم كل صباح للإعلان عن هذا الصابون في الصفحات الأولى للجرائد مع فتيات الإعلانات (كانت صور صدقي تنشر في ذلك الحين للإعلان عن هذا المنتج الجديد).

وربما يجعل هذا الصابون وجه صدقي أكثر نعومة، ولكنه لا يزيل ما علق به من آثار التاريخ الأسود.

ولم يصدق العمال وجهه الجديد ولا نبرته المفتعلة، وواصلوا مظاهراتهم التي اشترك فيها حوالي خمسة عشر ألفا من عمال النسيج بمصانع شبرا الخيمة والسكك الحديدية وورش أبي زعبل، والتحموا بمظاهرات الطلاب، فاستخدم صدقي "الجديد" صدقي اللامع، ذو الرائحة القوية.. لغة الرصاص، وسقط ٢٣ شهيدا و١٢١ جريحا من العمال والطلبة في ٢١ فبراير ١٩٤٦. كان العمال يهتفون ضد صدقي عدو الشعب، أو صدقي "بيفن"، بينما كان الإخوان المسلمون يهتفون له:

(واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صديقا)...!!! لمزيد من التفاصيل انظر: الإخوان المسلمون: ريتشارد ميشيل).

مفارقة واضحة لا يوازيها إلا الروح التي تتحدث بها صحيفة الإخوان عن حال الطبقة العاملة.. فبينما كان العمال يخوضون نضالات إضرابية ضخمة تصمد لمدة ١٩ يوما وتضم كافة مصانع النسيج في منطقة شبرا الخيمة، بما يعنيه استمرار الإضراب من ارتفاع درجة وعي العمال بأنفسهم كجسم واحد يقاوم أساليب العنف الحكومي، ويؤثر في المراكز العمالية الأخرى.



كما حدث حينما امتدت موجة الإضرابات من شبرا الخيمة إلى المحلة الكبرى والغزل الأهلية بكرموز الإسكندرية في يونيو ١٩٤٦، وغيرها من الأحداث التي دفعت بوضع الطبقة العاملة إلى مقدمة الصراع، وكثر الجدل حول مطالبها الاقتصادية وتحسين شروط العمل، ومطالبها السياسية في الاستقلال الوطني، وتكوين حزب يعبر عنها بعيدا عن سطوة القوى السياسية الأخرى.

وأمام هذا الفيض من المقاومة العمالية نجد صحف الإخوان تقف على الجانب النقيض منها حتى حينما خصصوا بابا في جريدتهم اليومية لمناقشة القضايا العمالية والتعليق على الأحداث مرة بالنصح لأصحاب الأعمال، ومرة بالتنهيد وإثارة الشفقة والعطف على أحوال العمال المساكين..

وفي ثنايا ذلك العطف الظاهري. كان الإخوان يهاجمون أساليب العمال وأسلحتهم، ويحاولون عن طريق عرض الحجج الزائفة والمنطق الممالئ لرأس المال تحريم كل شيء، على العمال باسم الدين:

- الإضراب عن العمل حرام.

- الإضراب عن الطعام حرام.

- الاعتصام حرام.
- التظاهر العمالي ضد أصحاب المصانع حرام.
- التفاوض الجماعي غير مستحب.
- عقد العمل الجماعي مكروه.
- صاحب العمل هو الذي يحدد الخبر.
- طاعة أولي الأمر واجبة.

إلى غير ذلك من الأحكام والفتاوي التي سنعرض لها لاحقا بشيء من التفصيل.

إن جريدة الإخوان المسلمون على كثرة ما عرضت للمشاكل العمالية المتفرقة والمناشدات التي وجهتها لوزارة الشئون الاجتماعية ومصلحة العمل للنظر بعين العطف إلى العمال المساكين، ونشر نصوص صندوق الإعانات كانت في كل ذلك مناوئة لروح التضامن العمالي، والخبرات النضالية المكتسبة في مقاومة ملاك المصانع.

وحينما حدثت إضرابات المحلة الكبرى عام ١٩٤٧، وفشلت قواة البوليس في محاصرتها وتسكينها، وتولى الأمر قوة من الجيش.. كانت النتيجة مقتل ثلاثة عمال وجرح تسعة

عشر واعتقال سبعة وعشرين منهم.. كتبت جريدة الإخوان تردد حجج الجانب المعادي للعمال وتؤكد وعود المسئولين الزائفة:

(عقد اجتماع بمكتب الأستاذ عبد الرحمن عمار بك، مدير الأمن العام، شهده حضرة مدير مصلحة العمل، ودار البحث فيه حول موضوع التوفيق بين شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى وبين عمالها المضربين، وذلك لاتخاذ ما يلزم من الإجراءات الخاصة بعودة العمال إلى أعمالهم في المصانع). [(٤٥)]

وجميعنا يعلم أي نوع من الاجتماعات هذا الذي يتم في مكتب مدير الأمن العام، وأي لغة تلك التي يتحدثون بها إلى العمال، بينما يعرضها الإخوان وكأنها حل للمشاكل العمالية ولا تكتفي جريدة الإخوان بذلك، بل تواصل إثارة الشكوك حول حركة العمال في المحلة، وفي شبرا الخيمة أيضاً:

(كانت – يقصد المذكرة التي قدمتها النقابة لإدارة الشركة – كفيلة بإرضاء العمال لولا تدخل ذوي الأغراض السيئة الذين صوروها لهم تصويرا خاطئا.

وأوضح أن موضوع الاستغناء عن بعض العمال لم يكن سوى لأن ظروف العمل اقتضت تنظيم إلغاء وظائف وإحالة شاغليها إلى وظائف أخرى في المصانع المختلفة). (٤٦)

ويتمادى الإخوان في استخدام أسلوب الوقيعة بين العمال بعضهم وبعض بإثارة الشكوك التقليدية والمكشوفة للجميع:

(يجب أن ننبه العمال أنفسهم إلى وجود طابور خامس يندس بينهم لينشر ويروج إشاعات السوء). (٤٧)

لكن أسباب إضراب عمال المحلة لم تكن الإشاعات، بل كانت تراكم الأوضاع السيئة والظلم الفادح الواقع عليهم من الجزاءات والنقل والفصل التعسفي.

ومن المضحك أن نجد بعد تلك الأحداث الملتهبة والنشاط العمالي الدامي تقريرا لأحد موظفي "جماعة شباب محمد" المنشقة عن الإخوان، يدعي فيه أن وجودهم هو الذي أدى إلى (إضعاف الحركة الشيوعية المتغلغلة بين صفوف العمال في المحلة الكبرى إلى حد كبير، كما أدى إلى وقف موجة السخط التي تسببت منها أضرار بالغة لهذا المصنع الوطني). (٤٨).

وإذا سلمنا بصحة هذا الادعاء الفاضح الذي كشفته أحداث الإضراب السابق.. وسلمنا بنفوذ جماعة شباب محمد الساحق في المحلة الكبرى. فهل يكون دورهم في وقف موجة السخط العمالي داعيا إلى التفاخر مثلهم في ذلك مثل قوات الأمن التي أوقفت موجة السخط على جثث العمال..!!!

*   *   *

ادعاء الانتشار لا يخفي العزلة

في الوقت الذي كان العمال ينصرفون فيه عن دعوة الإخوان، وينخرطون في مجرى النضال النقابي بحمية وحماس، راح الإخوان يفجرون بعض قنابل الدخان في الهواء حتى لا تنكشف عزلتهم.. فنشروا الكثير من المقالات التي تقدمهم للرأي العام في صورة مبالغ فيها وكأن جحافل العمال تزحف على مقراتهم:

(هاهم عمال النسيج بشبرا الخيمة يلتفون حولها – يقصدون حول دعوة الإخوان – وقد رأوا في الإسلام الذي ندعو إليه خلاصهم ورسالتهم المباركة، وكونوا من بينهم لجانا في كل مصنع، ثم كونوا لجنة عليا لمندوبي المصانع، وكذلك ألف عمال الأحذية من بينهم لجنة تنفيذية عليا. أما في محيط عمال المطاعم "الطباخين والسفرجية" فيسرنا أن نذكر أن الكثيرين منهم من الإخوان). [٤٩]

إن جميع الأحداث العمالية تكذب إدعاء الإخوان وخصوصا أحداث شبرا الخيمة والمحلة الكبرى، ولجان المصانع التي يتحدثون عنها كانت في الحقيقة لجانا مصطنعة

لضرب اتحاد الغزل الميكانيكي كما يذكر طه سعد عثمان. لقد كانت حركتهم في العموم في خط مفارق لحركة العمال الجماهيرية والجاذبة للنهر العام للعمال، أما الشراذم القليلة وغير المؤثرة والمتدنية الوعي فقد نظمها الإخوان في فرق كأسرى الإضراب التابعة لهم.

وبعد ذلك يدعون أن مصانع بأسرها قد صارت إخوانية..!!

وإذا توخينا الحقيقة فسنجد أن هناك مصانع كثيرة قد صارت إخوانية بالفعل، بمعنى أنها مصانع مملوكة للإخوان المسلمين. يلعبون فيها دور صاحب العمل.. الرأسمالي الذي يتحكم في قوانين العمل ويستأجر العمال ليديروا له آلاته ويدروا عليه الربح بنفس القوانين التي كان العمال يرفضونها في نضالهم الاجتماعي الواسع.

نفس القوانين الرأسمالية يطبقها الإخوان المسلمون في المشروعات التي امتلكوها دون أي فارق سوى في اليافطة الإسلامية.. ومن أهم هذه المشروعات:

- شركة الإخوان للصحافة ورأسمالها ٥٠,٠٠٠ جنيه.
- شركة الإخوان للطباعة ورأسمالها ٧٠,٠٠٠ جنيه.

- شركة الإعلانات العربية ويقال إن رأسمالها قد بلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه.

- شركة المعاملات الإسلامية وقد بلغ رأسمالها عام ١٩٤٦، ٣٠,٠٠٠ جنيه.

وفي قول آخر بلغ رأسمال شركة المعاملات عام ٤٦ خمسين ألفا من الجنيهات موزعة على ١٢٥٠٠ سهم ولها مؤسسات صناعية.

- الشركة العربية للمناجم والمحاجر ورأسمالها ٦٠,٠٠٠ جنيه.

- شركة الإخوان المسلمين للغزل ورأسمالها ٨,٠٠٠ جنيه.

(كان يعمل بها حوالي ٦٠ عاملا على أربعة عشر نولا.. وكان هذا المصنع من أصغر مصانع منطقة شبرا الخيمة وتوقف إنتاجه مبكرا في عام ١٩٤٩ م).

- شركة التجارة والأشغال الهندسية ورأسمالها ١٤,٠٠٠ جنيه.

- شركة التوكيلات التجارية بالسويس (لم نصل إلى رقم رأسمالها).

- شركة مزرعة العركي (وكانت تمتلك ٨٠٠ فدان).[٥٠]

بالإضافة إلى عدد كبير من المصانع الصغيرة أو الورش التي كان يفتتحها الإخوان كأساس لعملهم في الشُعب المختلفة.

وليست هناك مادة كافية تطلعنا على حقيقة هذه المشروعات وعدد العمالة فيها وما تحقق منها وما ظل على الورق، اللهم إلا مصنع الغزل الذي يدعي "محمد شريف" أنه حقق نجاحا كبيرا، وحقق ١٥٪ من تكلفته في الفترة من مايو ١٩٤٦ وحتى يوليو ١٩٤٨، وأبلغ تعليق على النجاح المنقطع النظير لهذا المصنع أنه أغلق أبوابه وتوقف عن العمل كليا عام ١٩٤٩.

أما المصانع الأخرى فلم نسمع شيئا عن إنتاجها إلا في حالات استثنائية قليلة حينما ظلت مجلة الإخوان تنشر إعلانا عن (عدة وابور جاز الإخوان المسلمين) وتدعو الجمهور إلى استعمالها لإنها (الشعلة التي تضيء الكون).

أما الإعلانات الأخرى التي امتلأت بها صحافتهم فكانت لمؤسسات رأسمالية عتيدة، منها ما هو ملك للأجانب، وما



هو ملك للمصريين دون تفرقة مثل إعلانات شركة "سباهي" وإعلانات المحلات التجارية المختلفة.

كرباج الأخلاق الإخواني في يد الرأسمالية

في زي الوعاظ وحماة قشرة الأخلاق يظهر الإخوان دائما.. ولا يشتد جعيرهم للمطالبة بحسن السير والسلوك، وفرض الأحكام الصارمة على تفاصيل الحياة اليومية البسيطة إلا في أوقات طفو القلق الاجتماعي على السطح.

وفي فترة الأربعينات التي شهدت زخما من الأحداث والمطالب والمظاهرات والإضرابات العمالية، راح الإخوان يصرخون على صفحات جرائدهم: الأخلاق.. الأخلاق.

ويصورون العمال وكأنهم يهتكون الأخلاق الحميدة وينشرون الرذيلة والفساد في المجتمع.. وكان هذا الحديث أحسن خدمة لرأسمالية لا تعرف كيف تواجه عمالها المنتفضين والمسلحين بأسلحة التضامن والوحدة وقوة اليد في اليد.

كان حديث الإخوان يشق مجرى مختلف للصراع ويعطي للرأسمالية فرصة ذهبية لترتدي هي الأخرى مسوح الأخلاق وتحوله إلى كرباج على ظهر من لا يتمثل لأوامرها.

نفس أصحاب المصانع، هؤلاء الذين يغرقون في الملذات الوضيعة فيمارسون الغش والعهر والكذب وأنانية الامتلاك وغطرسة التحكم في قوت البشر.. هؤلاء الذين يتقاتلون ويسرق بعضهم بعضا، ويتحايلون بكل الطرق للحصول على فلوس زائدة تملأ خزائنهم ولا تسد سعارهم إلى المال.

هؤلاء الرأسماليون هم الذين راح الإخوان المسلمون يشكون إليهم أخلاق العمال الرازحين في بؤسهم، تجمعهم المساكن الفقيرة على مودة لا يعرفها سوى الفقراء.. وتضامن لا يعرفه سوى المقهورين، فقد كان (عمال شبرا الخيمة يضربون عن العمل وضمن أسباب إضرابهم المطالبة بعودة زملائهم الذين أبعدوا). (٥١)

وبدلا من أن يرى الإخوان أخلاق التضامن وما تجسده من نبل المشاعر والسلوك، فإنهم يحرضون الجميع ضدهم، ويناشدون المجتمع لتقويمهم.

وطبعا كان أصحاب الأعمال والحكومة وكل أجهزة الدولة لا تعدم وسائل التأديب المادي والمعنوي ضد هؤلاء العمال الذين يتفق الإخوان مع الرأسمالية في تسميتهم بالمشاغبين.

ولقد بالغ الإخوان في الكتابة العدوانية واستخدام أساليب التضليل غير الأمينة والكذب الفج:

(تلك كلمة موجزة نتوجه بها إلى أصحاب المؤسسات الصناعية في منطقة شبرا الخيمة وقليوب ونهمس بها في آذان المسئولين من أصحاب مصانع نيومان وكليبر وناشان وداود عدس وشركة النيل وشركة الصوف... إلخ..

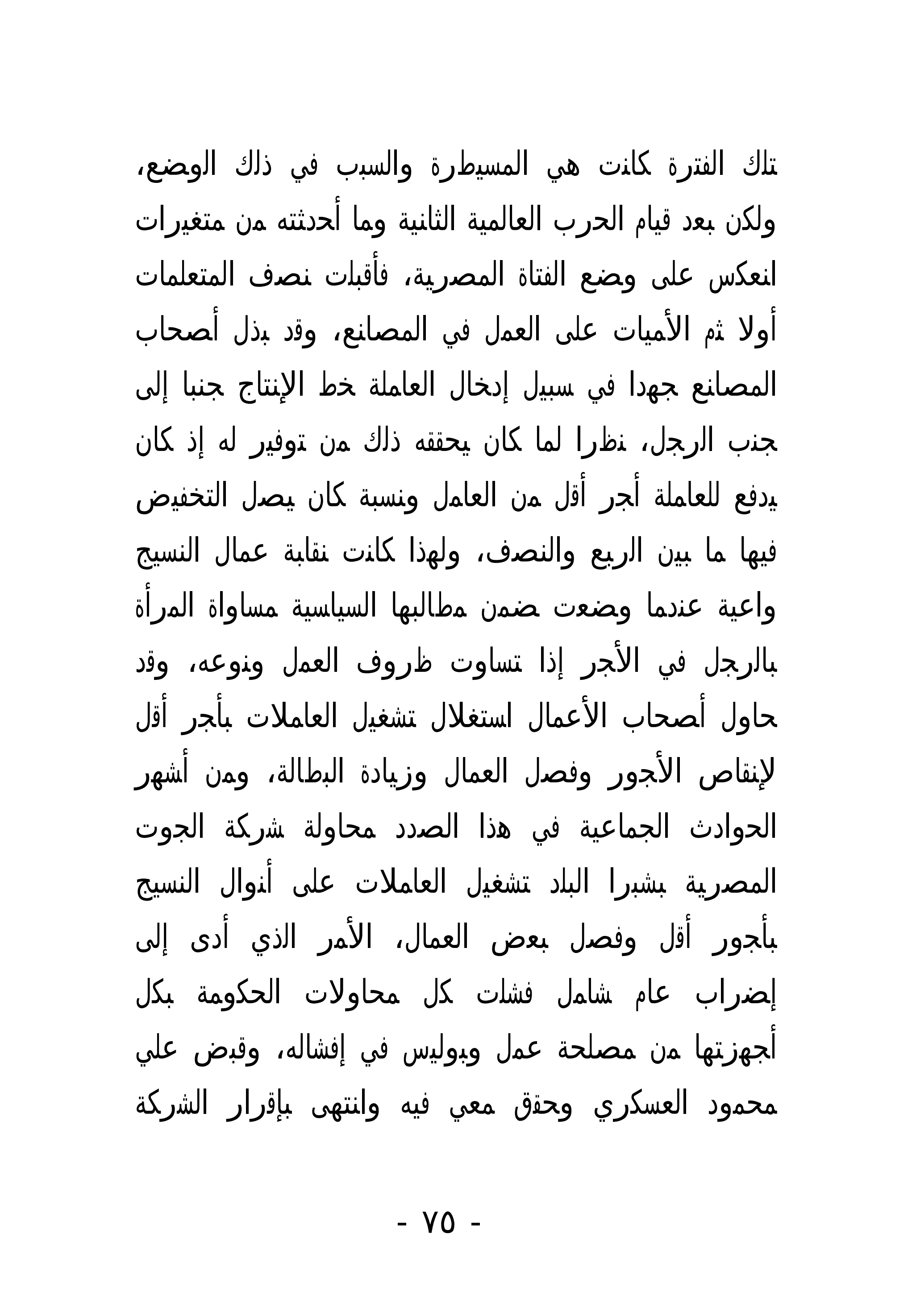
ونرفعها إلى أولى الأمر في وزارة الشئون الاجتماعية فإن من صميم واجباتهم صيانة النفوس من التلوث والفساد. في تلك المؤسسات استهتار فاضح بالأخلاق والشرف وهناك اتصال يفرضه العمال بين الفتيات والعمال.

وإذا رأيت ثم رأيت فتيات متهتكات يلبسن "الشورت" ويصبغن وجوههن بالمساحيق ويزاملن الشبان وهن بهذا المنظر الفاضح في العمل. فأنت توقن أن الشيطان يبيض ويفرخ في تلك الأوكار وتعبث الشهوات بالعقول. وهذا وصف الحال التي تشكو منها تلك المنطقة وقد بلغ الاستهتار بالآداب العامة حدا جعل أولئك الفتيات يخرجن مع زملائهن في الطرقات ضاحكات صاخبات عابثات يتفوهن بالألفاظ الماجنة ويظهرن بخلاعة مبتذلة.. حتى في السيارات التي

تنقل خليطهم من ميدان إبراهيم باشا إلى مقر عملهم أو تعود بهم إلى منازلهم يسمع ويشاهد ما تتأذى منه الفضيلة والأخلاق. ونحن نكتفي بهذا القدر حتى نرى تصرف المسئولين "ش".). (٥٢)

أرأيتم أي لغة عدوانية يستخدمها الإخوان ضد العمال والعاملات في هذا الوقت الذي قدموا فيه نموذجا باهرا للتضامن والوحدة، حينما كانت العاملات يشتركن بمنتهى القوة والحزم في الإضراب مع رفاقهم الرجال.. ويرفضن استخدامهن كبديل عن العمال في تشغيل الآلات. ويكفي أن نسترجع الصور التي قدمها "طه سعد عثمان" عفوا ضمن ذكرياته عن عاملات النسيج في شبرا الخيمة، لنعرف أي كذب وافتراء يقدمه الإخوان للجمهور الذي يصدق لعبة (حماة الأخلاق).

(كان عدد العاملات في المصانع قليل جدا، فمثلا مصنع سباهي بشبرا الخيمة وهو الذي كنت أعمل به، كان به عاملة واحدة من بين خمسمائة عامل يضمهم المصنع، وكانت تحضر إلى المصنع بلبس بنات البلد – الملاية اللاف والجلباب الطويل – ولاشك أن التقاليد المصرية وخاصة الريفية في


تلك الفترة كانت هي المسيطرة والسبب في ذلك الوضع، ولكن بعد قيام الحرب العالمية الثانية وما أحدثته من متغيرات انعكس على وضع الفتاة المصرية، فأقبلت نصف المتعلمات أولا ثم الأميات على العمل في المصانع، وقد بذل أصحاب المصانع جهدا في سبيل إدخال العاملة خط الإنتاج جنبا إلى جنب الرجل، نظرا لما كان يحققه ذلك من توفير له إذ كان يدفع للعاملة أجر أقل من العامل ونسبة كان يصل التخفيض فيها ما بين الربع والنصف، ولهذا كانت نقابة عمال النسيج واعية عندما وضعت ضمن مطالبها السياسية مساواة المرأة بالرجل في الأجر إذا تساوت ظروف العمل ونوعه، وقد حاول أصحاب الأعمال استغلال تشغيل العاملات بأجر أقل لإنقاص الأجور وفصل العمال وزيادة البطالة، ومن أشهر الحوادث الجماعية في هذا الصدد محاولة شركة الجوت المصرية بشبرا البلد تشغيل العاملات على أنوال النسيج بأجور أقل وفصل بعض العمال، الأمر الذي أدى إلى إضراب عام شامل فشلت كل محاولات الحكومة بكل أجهزتها من مصلحة عمل وبوليس في إفشاله، وقبض علي محمود العسكري وحقق معي فيه وانتهى بإقرار الشركة

بالمساواة في الأجر، وإذا كانت التقاليد قد منعت عاملات النسيج من المساهمة العملية في الكفاح من داخل النقابة إلا أنهن قد اشتركن في الكفاح وكانت منهن مناضلات خضن معارك واشتركن في الإضرابات ودفعن اشتراك النقابة، ولكن التقاليد كما قلت منعت من أن يكون من بينهن عضوة مجلس إدارة في هذه النقابة حتى حلتها الحكومة في: ٣٠ أبريل ١٩٤٥). [٥٣]

وفرق كبير بين الصورة المغرضة التي رسمها الإخوان، والصورة التي رسمها طه سعد عثمان، ويبدو أن الإخواني الذي لا يجرؤ على التوقيع باسمه، قد كتب مقاله على إثر كابوس رآه في المنام.. وصورته له أوهامه وميوله الجبانة وكراهيته للعمال والعاملات الفقراء، حتى أنه يتغاضى عن كل ما في حياتهم من بؤس ومن معاني جميلة أيضا، ويستعدي عليهم الرأسمالية – حامية الرذيلة والفساد في المجتمع بل وصانعتها – بتلك اللغة الفجة والروح المزيفة.. إنهم يصورون الأمر وكأن العمال قد حولوا المصانع إلى بيوت للدعارة تقطنها بنات "متهتكات" وليس عاملات يذهبن في عز البرد والحر منذ الصباح وحتى نهاية اليوم، يقفن

خلف الآلات ولا تستطيع الواحدة منهن الالتفات خوفا من جزاء رئيس العنبر وعقاب الإدارة وشبح الطرد الذي يهددها دائما.

وحملة الإخوان الأخلاقية لا تنتهي لأنها سلاحهم الذي يغازلون به جمهورهم المحافظ بل تتسع دائرتها لتشمل الهجوم على أخلاق العمال من الجنسيين:

(إن خَطْبا أدهى من ذلك يلم بطبقة العمال هو انحلال الأخلاق، هو تدهور النفوس، هو الفوضى الإباحية). [٥٤]

أي إباحية التي يتهمون العمال بها.. يبدو أن مسلسل الافتراء لا ينتهي. ولكن إذا كانت أخلاق الطبقة العاملة برجالها ونسائها لا تعجب الإخوان فما هو النموذج البديل الذي يقدمونه للأخلاق الحسنة...؟

الإخوان يدافعون عن أخلاق الحلول الفردية بدلا من أخلاق التضامن الجماعي، ينشرون الرسائل الفردية ويقدمون الحلول الجزئية، ويمدحون أخلاق الطاعة المطلقة للمديرين، والتزلف لهم، فتقدم مجلة الإخوان عمال مصبغة شركة مصر لنسج الحرير بحلوان كمثل طيب على المعاملة الحسنة بين الرأسماليين والعمال، من خلال صورة لعمدة القسم

الناشئ – قسم الإخوان – في المنطقة وهو يقدم إلى (اللوزي بك مدير عام الشركة نسخة من كتاب ا). [٥٥]

وهذه المصالحة الشكلية بين العمال وأصحاب الأعمال أو المديرين لا تقوم على أي أساس موضوعي، فلا حديث عن حقوق مكتسبة للعمال في هذا الموقع، فقط صورة دعائية للطاعة والتملق تغطي علاقة المرؤوس المستكين للأمر الواقع برؤسائه مهما كانوا ظالمين.

ولقد أفاضت أقسام العمال في فبراير ١٩٤٦ في إقامة (صلوات متتالية يقوم بها مندوبو القسم في مناطق المدابغ وعمال الجيش بالعباسية). [٥٦]

وإذا قارنا تلك الصورة الدعائية بمجمل حال الطبقة العاملة في ذلك الوقت، فسنجد أن الموقف كان متفجرا في المصانع والجامعة والميادين التي شهدت مظاهرات ضخمة قادتها اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، التي خانها الإخوان وقطعوا كل صلة لهم بلجانها وطردتهم من دارها.

(ولم يكتف الإخوان المسلمون بهذا، ولكنهم انزعجوا بقدر انزعاج الحكومة عندما رأوا أن الشباب الوطني الذي انخدع في البداية بهم لن يقبل أن يطعن الحركة الوطنية من الخلف،

فسارع مكتب الإرشاد العام بإعلان طلاقه البائن لكل عمل مع أية جماعة أو هيئة.) [٥٧]

وكما هو واضح، فإن انحلال العمال الأخلاقي الذي يكثرون من الحديث عنه ويحرضون به الطبقات الأخرى.. كان يتجسد في رفض العمال لشروط الاستغلال المزري وعدم انسحاقهم أمام جبروت رأس المال.

نعم لقد كان العمال يرفضون الرضوخ والطاعة العمياء، فهم إذن من وجهة نظر الطبقات المالكة متمردين وفي حاجة إلى قمع سريع، وهم من وجهة نظر الإخوان منحلين أخلاقيا وفي حاجة إلى قمع سريع.. وطبعا فإن سياسة الردع والتقويم التي كانت الرأسمالية تمارسها بالفعل ضد التمرد العمالي، لم تكن لتجد أفضل من هذا الغطاء الدعائي المكسو بثياب الدين لتحرك به روح العداء الاجتماعي العام ضد العمال المنتفضين في شبرا الخيمة والغزل الأهلية بالإسكندرية والمحلة الكبرى وغيرها.

* * *

وفي عام ١٩٤٧ حينما زادت حدة القلق العمالي راح الإخوان يحرضون المجتمع ضد الطبقة العاملة بنشر صور لمقاهي شعبية تحمل عنوان:

(مواطن الكسل هذه أغلقوها) [٥٨]

وأسفل الصورة تعليق غريب يقول:

(هكذا تقضي الطبقة العاملة المنتجة في الأمة وقتها). [٥٩]

فكان ذلك استعداء غريب تنفثه صحف الإخوان ضد العمال، وكأنه لا يكفي ما يرزح العمال تحته من المصاعب والهموم.

ولشد ما كانت صورة العمال المتكاسلين.. الخاملين.. الذين يحتاجون إلى عصا غليظة لإيقاظهم مغايرة للحقيقة.

وفي ظل موجة التكدير العامة للطبقة العاملة وحياتها كانوا يتدخلون في تفاصيل العادات اليومية ويطالبون بوضع كل جزئياتها في ملزمة من حديد لتأديب تلك الطبقة المتمردة. فيستخدمون فن العقاب بحرمانها من عادة شرب الشاي بحجة أن:

(الشاي ينهك قوى الأيدي العاملة ويستنفذ نصف دخل الطبقات الفقيرة:

اعتادت الطبقات الفقيرة في السنين الأخيرة عادة خطيرة قاتلة للفَلاح تلك هي عادة إدمان الشاي، الذي ينهك قوى الأيدي العاملة في الحقول والمصانع، وقد استولى على أفرادها إدمان الشاي إلى درجة أن الواحد منهم ينفق نصف دخله اليومي في إرضاء شهوة الإدمان بدلا من إنفاقه في غذائه وغذاء أولاده) [٦٠]

وتصل بهم الرغبة في تكدير العمال إلى حد المطالبة (برفع الضرائب على الشاي إلى حد استحالة مشتراه لمن ليسوا في حالة يسر). [٦١]

وهنا يتضح تحيزهم الواضح فميزان "اليسر" هو العامل الأساسي في الموضوع حيث تتحول متعة شرب الشاي إلى عادة للموسرين فقط دون غيرهم من الشعب. ولذلك يطالبون (بالتفكير بصفة مستعجلة في ابتكار العلاج الناجع سواء كان ذلك عن طريق سن التشريع المانع أم عن طريق رفع الضرائب..).

وإذا كانت كل التيارات السياسية تطالب – حتى على سبيل الدعاية – بتخفيض الأسعار ورفع الضرائب عن كاهل الشعب، فهم يتفردون هنا بمطلب رفع الأسعار وزيادة

الضرائب لتأديب تلك الطبقة المتمردة وتكدير عيشها.. وربما يستوجب الأمر زرع العيون والجواسيس في كل البيوت للتأكد من أن العمال يسيرون على الصراط المستقيم ولا يمسون مشروب الشاي السقيم.

فأي تكدير هذا الذي يعدونه للطبقة العاملة بدعوى الحفاظ على الأخلاق..!!!

الانهيار العظيم

لم يستمر زمان المصالحة والتعاون بين حلف الإخوان وحكومات الأقلية، وسرعان ما حدث صدام شديد بينهما على إثر اغتيال الإخوان للنقراشي باشا، وانطلقت وزارة عبد الهادي في تصفية الإخوان بلا هوادة.

وشهد "حسن البنا" قبل اغتياله انهيار أركان الجماعة وتقويض دعائمها وإغلاق مقراتها ومصادرة ممتلكاتها.

انهيار شامل عجل بموت "البنا" معنويا قبل حدوث موته الجسدي، وكما كان "السعديون" كرماء في مساعدة الإخوان، كانوا أشد كرما في التنكيل بهم ولم تجد كل استعطافات "البنا" وتذلـله لأجهزة الأمن وإدانته لكوادر جماعته في وقف موجة التصفية هذه، حيث لم يبعد إبراهيم عبد الهادي رئيس الوزراء الموكل بأمر مسح الإخوان على شيء من أجهزتهم السرية والعلنية فكانت نهاية مأساوية لطموح مبالغ فيه، وتعجل شديد للصعود والسيطرة على مقدرات البلاد.

ويبدو أن الإخوان قد تضخموا خلال عامي ٤٦/ ٤٧ وظنوا أن الحكم قد دنا منهم بما يملكون من سلاح وفرق

حسنة التدريب ونفوذ سياسي، وبلغت تصريحات "حسن البنا" حدا بعيدا من الغرور والإحساس بالقوة حينما قال في مارس ١٩٤٦:

(الإخوان لا يسعون للحكم ولكن الحكم هو الذي يسعى إليهم). [٦٢]

لقد بلغ إحساس التضخم بهم حدا جعلهم يعتقدون أن الحكم قد بات على شفا خطوة منهم. لكن حسابات الإخوان كانت متسرعة وانقلاب تعجلهم عليهم.

*   *   *

وحاول الإخوان بعد مذبحة ١٩٤٨ لملمة أطراف وجودهم فانشغلوا بذلك طوال الفترة من ٤٩ وحتى ١٩٥٢ واستغرقوا في صراعات داخلية عنيفة بين بقايا الفريق القديم والقادة الجدد.

وكثر الحديث عن علاقة "حسن الهضيبي" المباشرة بالسراي وزيارات الولاء المتتالية التي كان يقوم بها.

*   *   *

هوامش الفصل الأول

١- أمين عز الدين – تاريخ الطبقة العاملة المصرية – دار الغد ص ٤١٥.

٢- حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – دار الاعتصام ص ١٠٢.

٣- حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – المصدر السابق.

٤- حسن البنا – مذكرات الدعوة والداعية – المصدر السابق.

٥- مجلة النذير – العدد ١٠ – ٤ ذي القعدة – ١٣٥٧ هـ.

٦- أمين عز الدين – تاريخ الطبقة العاملة ص ٤٣٨ – ٤٣٩.

٧- أمين عز الدين – المصدر السابق ص ٤٤٠.

٨- أمين عز الدين – المصدر السابق.

٩- أمين عز الدين – المصدر السابق.

١٠- مجلة الإخوان المسلمين: العدد ١٩ – الثلاثاء ٢١ جمادي أول سنة ١٣٥٤/ ٢٠ أغسطس ١٩٣٥ م. السنة الثالثة ص ٣٢.

١١- مجلة الإخوان المسلمون العدد ١٩ – المصدر السابق.

١٢- مجلة النذير – العدد الخامس والعشرون، السنة الأولى، الإثنين ٢٢ رمضان ١٣٥٧ هـ، ص ٢٤. في محيط الإخوان.

١٣- مجلة النذير: العدد ١٦ – السنة الأولى، الخميس ١٣ رجب ١٣٥٢ هـ.

١٤- مجلة الإخوان المسلمون، العدد ١٩ – الثلاثاء ١ جمادي الأولى سنة ١٣٥٤ هـ/ ٢٠ أغسطس ١٩٣٥ م.

١٥- ريتشارد ميتشيل – الإخوان المسلمون.

١٦- الإخوان المسلمون، الخميس ٢١ صفر ١٣٥٢ هـ. السنة الأولى العدد ١.

١٧- مجلة النذير: العدد الرابع والعشرون، السنة الأولى، الإثنين ١٥ رمضان ١٣٥٧ هـ.

١٨- طه سعد عثمان – كفاح عمال النسيج.
١٩- أمين عز الدين – تاريخ الطبقة العاملة المصرية. المصدر السابق.
٢٠- د. سامي أبو النور – دور القصر في الحياة السياسية في مصر ٣٧ – ١٩٥٢ م، مكتبة مدبولي.
٢١- د. سامي أبو النور – المصدر السابق.
٢٢- ريتشارد ميتشيل – الإخوان المسلمون، ص ١٤٥.
٢٣- باجرات سيوانيان – الوفد والإخوان المسلمون – ترجمة بشير السباعي – دار آزال للطباعة والنشر ببيروت.
٢٤- مقدمة كتاب: ريتشارد ميتشيل، بقلم: صلاح عيسى، المصدر السابق.
٢٥- الإخوان المسلمون – الجريدة اليومية – قسم تردد غير مرة.
٢٦- لطيفة سالم – فاروق وسقوط الملكية في مصر.
٢٧- جول بنين – العمال على ضفاف النيل، بالإنجليزية.

٢٨- الإخوان المسلمون – مجلة أسبوعية – الخميس ٢١ صفر ١٣٥٢ هـ، السنة الأولى، العدد ١.

٢٩- جول بنين – العمال على ضفاف النيل، المصدر السابق.

٣٠- طه سعد عثمان ص ١٩. المصدر السابق.

٣١- طه سعد عثمان – المصدر السابق.

٣٢- مجلة النذير: طبقات مظلومة: العمال بين الحكومة وأصحاب الأعمال، العدد ٢١ – الإثنين جمادي الأول، السنة الثانية ص ٤.

٣٣-جول بنين: العمال على ضفاف النيل – المصدر السابق.

٣٤- أمين عز الدين: تاريخ الطبقة العاملة، ص ٥٩٠. المصدر السابق.

٣٥- مجلة النذير: العدد ١٨، الرثنوين، غرة جمادى الأول سنة ١٣٥٨ هـ، السنة الثانية، العمال المضربون عن الطعام.

٣٦-النذير: العدد ٢١، الإثنين ٢٢ جمادى الأول سنة ١٣٥٨، السنة الثانية ص ١٤.

٣٧- جول بنين، المصدر السابق.

٣٨- طه سعد عثمان: مذكرات ووثائق الطبقة العاملة والعمل السياسي من تاريخ عمال مصر، الكتاب الثالث، الطبعة الأولى، مؤسسة العروبة.

٣٩- طه سعد عثمان: المصدر السابق، ص ١٠.

٤٠- جول بنين: المصدر السابق.

٤١- أمين عز الدين: تاريخ الطبقة العاملة المصرية، المصدر السابق.

٤٢- أمين عز الدين: المصدر السابق.

٤٣- ريتشارد ميتشيل: الإخوان المسلمون، المصدر السابق، ص ١٣٦.

٤٤- إسماعيل صدقي: مذكرات، دار الهلال.

٤٥- أمين عز الدين: تاريخ الطبقة العاملة المصرية، المصدر السابق.

٤٦- الإخوان المسلمون: ٧/ ٩/ ١٩٤٧، ص ٣، حركة العمال في المحلة الكبرى.

٤٧- الإخوان المسلمون: ٧/ ٩/ ١٩٤٧ م.

٤٨- مجلة النذير: الخميس ٢٠ جمادى الثانية، ١٣٦٧ هـ، السنة السابعة، العدد ١٨٣.

٤٩- الإخوان المسلمون: العدد ١٩٤، السنة الرابعة، الثلاثاء ١٥ ربيع الثاني ١٣٦٥ هـ/ ١٩ مارس ١٩٤٦ م، ص ٢٢.

٥٠-رفعت السعيد: حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمون متى.. وكيف ولماذا، دار الطليعة، الطبعة الثالثة ١٩٨٨، ص ١١٩. بالإضافة إلى معلومات من جول بنين.

٥١- طه سعد عثمان: ص ٥٠، المصدر السابق.

٥٢- الإخوان المسلمون: العدد ٨٦، السبت ١٥ صفر سنة ١٣٦٥ هـ السنة الرابعة – ١٩ يناير ١٩٤٦ – العدد الخامس.

٥٣- طه سعد عثمان: ص ٦٩، المصدر السابق.

٥٤- النذير: العدد ٢٧، الإثنين ١٣ شوال سنة ١٣٥٧ السنة الأولى، ص ٢.

٥٥- الإخوان المسلمون: العدد ١٠٦.

٥٦- الإخوان المسلمون: العدد ١٠٨، السبت ٢٩ يونيو ١٩٤٦، السنة الرابعة.

٥٧- طه سعد عثمان: ص ٢١٤، المصدر السابق.

٥٨- جريدة الإخوان المسلمون: ٢٩/ ١٠/ ١٩٤٧، الصفحة الأخيرة.

٥٩- نفس المصدر السابق.

٦٠- مجلة النذير: الخميس ٧ جمادى... سنة ١٣٥٩ هـ الموافق ١٣ يونيه ١٩٤٠، العدد الثامن عشر، السنة ٣.

٦١- النذير: المصدر السابق.

٦٢- مجلة المصور: العدد ١١٦،– الجمعة مارس ١٩٤٦.

الفصل الثاني

في السلطة مع الضباط

ومنها إلى السجون والمنافي

الفترة من ١٩٥٢ وحتى ١٩٥٤

في الظلام كان القسم

اعتبر الإخوان استيلاء الضباط على السلطة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ نصرا لهم، حيث كانت تربطهم صلات قوية مع بعض أعضاء "مجلس الثورة" منذ عام ٤٤/ ١٩٤٥.

(كانوا إذ ذاك يذهبون ليلا إلى حي الصليبة فإذا ما انطوى الحي يصلوا إلى بيت عتيق.. فيصعدون درجا يؤدي بهم إلى غرفة مظلمة لا أحد فيها ولا تفتح نوافذها.. ويجلس الضابط إلى منضدة وضع عليها مصحف ومسدس، ثم يدخل إلى الغرفة في الظلام رجل لا يراه الجالس ويلقنه يمين الإخلاص للدعوة فيؤدي هذا القسم ويداه موضوعتان على المصحف والمسدس، وتنتهي هذه العملية فيخرج الرجل من الغرفة أولا ثم يخرج الضابط ليجد رسول الإخوان الذي جاء به في انتظاره يقوده مثلما جاء به إلى خارج الحي). [١]

وبرغم هذه الصورة البوليسية التي يرسمها أنور السادات في مذكراته، فيبدو أن علاقة الإخوان بالضباط قد فترت بعد موت "حسن البنا" حتى كان نجاح الضباط في الاستيلاء على الحكم.. فبالغ الإخوان في الترحيب بهم.

(جيش باسل وشعب عظيم.) [٢]

(حركة الجيش في سبيل ا   والوطن.) [٣]

لقد ظن الإخوان أنهم وصلوا إلى الحكم عبر علاقتهم مع هؤلاء الضباط، فراحوا يطالبونهم باتخاذ الإجراءات السريعة لإعلان الدولة الإسلامية، لكن أملهم قد خاب للمرة الثانية.

وانقضى شهر العسل سريعا.. ولاقوا على يد "جمال عبد الناصر" – حليفهم اللدود – ما لم يلاقوه على يد حكومات الأقلية من قبل.

دخلوا معه دهاليز الحكم وكان لهم مستشارين في مجلس الثورة. وسرعان ما دخلوا على يديه السجون والمعتقلات.

فكيف أدلى الإخوان بدلوهم في الأحداث العمالية التي شهدتها تلك الفترة..؟

*   *   *



حركة يوليو تنصب المشانق
في كفر الدوار والإخوان يؤيدون

من أول قرارات ضباط يوليو ١٩٥٢ إصدار حكم الإعدام على العاملين: مصطفى خميس ومحمد البقري، العاملين بشركة مصر للغزل والنسيج بكفر الدوار.

وفي ساحة المصانع.. على الملأ.. أمام جميع العمال، اصطف المجلس العسكري بالبزات الرسمية المنشاة، وشارات الصفيح اللامعة على الأكتاف، والوجوه المتجهمة أمام صفوف العمال المترقبة.. قرأ الضابط "عبد المنعم أمين" قرار إعدام خميس والبقري، وأعقب ذلك لحظة سكون مميت، توقفت فيها أنفاس آلاف العمال الحاضرين وتعلقت عيونهم بخميس والبقري الذين تلقيا النبأ في صمود مهيب.

لشد ما كشفت تلك اللحظة على قِصرها من حقائق:

- كشفت الذعر الذي يعصف بهؤلاء الضباط خشية اتساع موجة الإضرابات العمالية وإفلات الزمام من أيديهم – يجب أن يستكين الوضع حتى تستقر الدبابات في مقاعد الحكم، ولو كان الثمن هو سحق إرادة جميع العمال.

- كما كشفت الديكتاتورية ووسائل القمع التي حملتها حركة الضباط للمجتمع وخصوصا لطبقاته الشعبية، وسوف تتجلى هذه الديكتاتورية في حل الأحزاب وتسريح كل القوى السياسية، فيما عدا الإخوان المسلمين.

وفور وقوع الأحداث يومي ١٢، ١٣ أغسطس، بعد أيام قليلة من الانقلاب سارع "مجلس الثورة" بإضافة مادة جديدة إلى قانون الأحكام العرفية تقضي بسرعة تشكيل "مجلس عسكري" في منطقة الأحداث، على غرار ما فعله الاحتلال البريطاني في محاكمة دنشواي، وتكون المجلس من بكباشي "عبد المنعم أمين" والمعروف بعلاقاته الوثيقة مع السفارة الأمريكية في مصر – رئيسا، وبكباشي "عبد العظيم شحاتة، وصاغ "أحمد وحيد حلمي"، وصاغ "محمد بدوي الخولي"، ويوزباشي "فتح ا رفعت" أعضاء أصليين.. وتكون هذا المجلس بسرعة غريبة، كما حصل على موافقة "علي ماهر" خلال نصف ساعة اجتمع فيها مجلس الوزراء بشكل صوري ومضى على القرارات التي كانت معدة سلفا.

وصدرت الأحكام بسرعة غريبة حتى أن المحامين المقيدين من قبل المجلس كانوا يتذمرون من عدم توفر الوقت

للاطلاع على ملفات القضية، فالأحكام كانت جاهزة وليس مطلوبا سوى إكمال الصورة بوجود محامين سواء دافعوا عن العمال أو لم يدافعوا.

ومن المشاهد المضحكة المؤسفة، أن يمثُل أحد المتهمين أمام المحكمة العسكرية دون محامي، فيسأل الرئيس:أليس في القاعة محامي يدافع عن هذا المتهم.. فيقف "موسى صبري" الذي كان ذاهبا بصفته الصحفية لتغطية الأحداث، ويقول: إنه متخرج من كلية الحقوق، فيعطيه المجلس دور الدفاع من أجل إكمال الصورة. وبعد صدور الأحكام جاء دور التصديق عليها.. ولنسمع كيف يبرر – محمد نجيب – جريمة الضباط في حق الطبقة العاملة:

(صدر حكم المجلس بإعدام العاملين: مصطفى خميس ومحمد البقري، وجاء الحكم لي للتصديق.. وتوقفت لن أصدق على حكم بالإعدام وحركتنا لم يمض عليها عشرات الأيام، وطلبت مقابلة المتهمين بعد أن أفصحت عن رأيي صراحة.

وأحاطتني تقارير مخيفة بأن أي تهاون في مواجهة العمال سوف يؤدي إلى انتشار الاضطرابات والتظاهرات في

مناطق التجمع العمالية في شبرا الخيمة والمحلة الكبرى وغيرهما. وكنت أعرف أن هذه التقارير قد كتبت بأقلام رجال الأمن السابقين في عهد الملك، ولم يكن كافيا أن نغير اسم (البوليس السياسي) ليصبح المباحث العامة بعد الثورة حتى يتوقف عمله. كما أن عزل بعض كبار ضباطه لم يكن كافيا أيضا لتغيير اتجاه نشاطهم في لحظة واحدة بلمسة.

وحضر "مصطفى خميس" إلى مكتبي بالقيادة، دخل ثابتا، وعندما رجوته أن يذكر لي عما إذا كان أحد قد حرضه لأجد مبررا لتخفيف الحكم عليه، أجاب في شجاعة بأنه لا هيئة ولا إنسانا من ورائه، وأنه لم يرتكب ما يبرر الإعدام. وامتد الحوار بيننا نصف ساعة طلبت له فيها فنجانا من الشاي وكنت ألح عليه كما لو كان قريبا أو أخا عزيزا ولكن دون فائدة فقد كان صاحب مبدأ لم يخنه في الفرصة الأخيرة لنجاته، وخرج مصطفى خميس من مكتبي وقد أثقل الحزن قلبي، بعد أن صدقت على الحكم.) [٣]

لكن قلب محمد نجيب الرقيق وقلب الضباط الأحرار الأكثر رقة أصر على تنفيذ الحكم وإعدام مصطفى خميس الذي لم يبلغ من العمر عشرين عاما، وهو (من أهالي إدكو،

تلقى دراسته الثانوية في المدرسة المرقسية الثانوية بالإسكندرية حتى السنة الثالثة، ثم اشتغل مخزنجيا بالشركة وقضى في خدمتها سبع سنوات، وقد اعترف بقيادته المظاهرة وهتافه "يحيا محمد نجيب" وكان يعول والديه وأخوين طفلين.) [٤]

أما محمد البقري فكان يعمل غفيرا بشركة مصر للغزل والنسيج. وأصر جميع الضباط الأحرار – فيما عدا خالد محي الدين ويوسف صديق – على إعدام العاملين في محاولة لإعدام إرادة الطبقة العاملة في شخصيهما، بينما اختلف الموقف حينما تعلق الأمر بأشخاص من الطبقة المالكة، ففي نفس العام صدر الحكم بالإعدام على "إبراهيم عبد الهادي" رئيس الوزراء السابق، وأحد جلادي الشعب المعروفين.. فظهرت الرقة الحقيقية للضباط وقاموا بحمايته، ورفض محمد نجيب التصديق على هذا الحكم بحزم ودون ميوعة أو تلكؤ مفضلا أن (يلتف حبل المشنقة حول عنقه شخصيا قبل أن يصدق عليه.) [٥]

وفعلا خفف الحكم إلى السجن حتى لا يخالف الضباط الأحرار مبادئ حقوق الإنسان والعالم الحر، وحرية

الرأسمالية، وكل أنواع الحرية التي فصلت خصيصا لعلية القوم دون غيرهم.!!!

أما موقف القوى السياسية الموجودة وقتها، خصوصا الإخوان المسلمون موضوع بحثنا، فكان لا يقل صرامة وعداء ضد العمال.. فنلاحظ أن صحافة الإخوان قد هللت لحركة الضباط واستبشرت بها خيرا، لما كان يعتقده الإخوان من أن الحركة قد قامت بفضل دعايتهم في صفوف الجيش غير مراعين توليفة المجلس الذي كان يحتوي على عدد من الاتجاهات، فإذا ما كان بعض الضباط تربطهم صلات قديمة مع الإخوان، فإن آخرين كانوا أقرب إلى الشيوعية مثل يوسف صديق الذي كان يطالب بإلغاء الرقابة على الصحف وتكوين اتحاد عام للعمال ولما لم يجد أذنا صاغية، واتضحت له الميول الديكتاتورية للضباط، قدم استقالته بعد ذلك. وكانت حملة الإخوان ضد الشيوعية في ازدياد، وحملتهم على الحركة العمالية في ازدياد أيضا.

وقبل أحداث كفر الدوار، وعلى إثر أنباء إضراب عمال شركة صباغي البيضا يوم ٩/ ٨/ ١٩٥٢ اقترح الإخوان

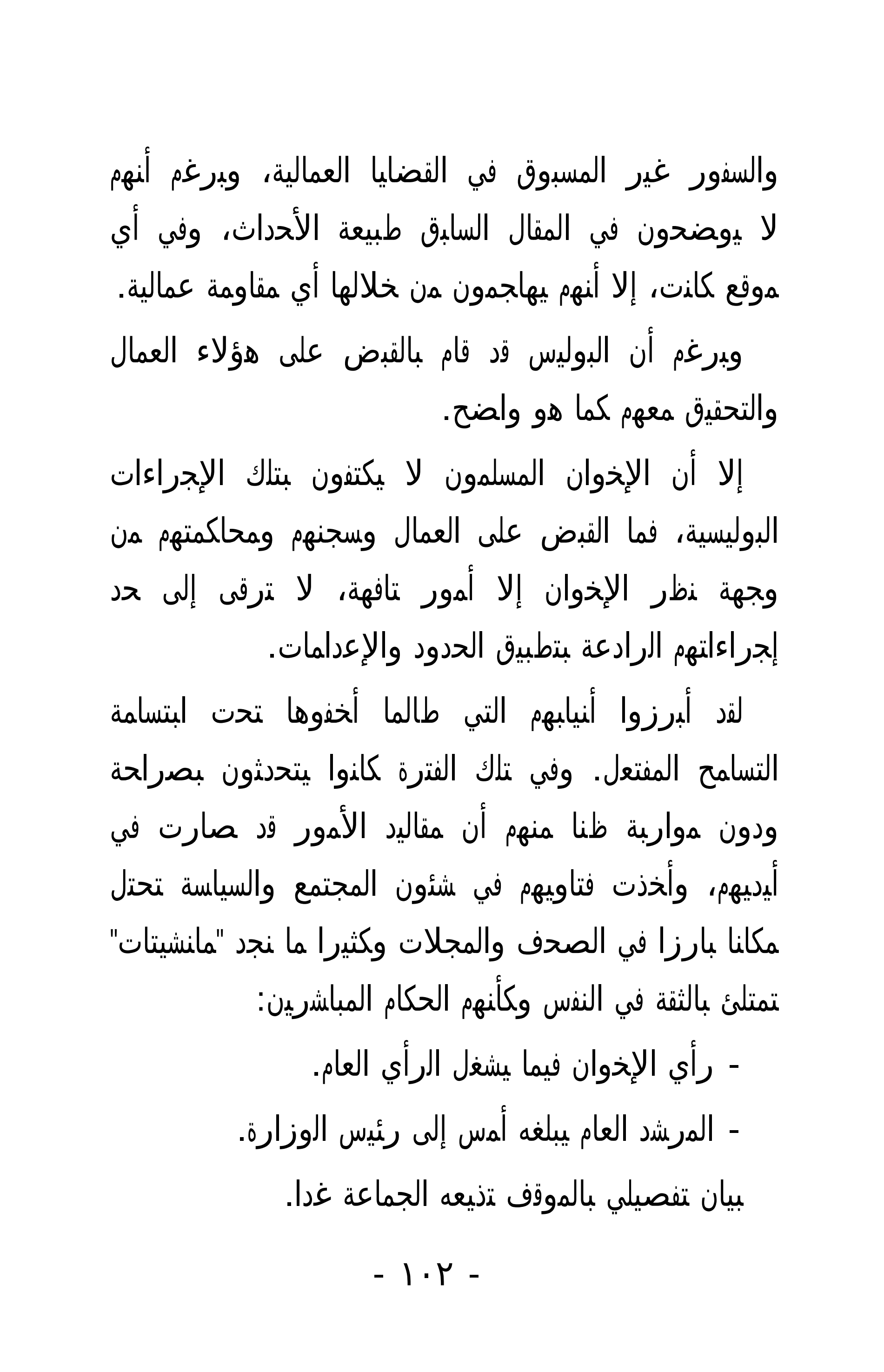
المسلمون تطبيق حد "الحرابة" على العمال المضربين، ويقضي هذا الحد بقطع الأيدي والأرجل من خلاف.

وكانت هذه الشراسة الإخوانية ضد العمال قبل أن تبدأ أحداث كفر الدوار، أو يتوقع أحد حدوثها.

في يوم ٥ أغسطس، وقبل اندلاع أحداث كفر الدوار أيضا نشرت مجلة الدعوة مقالا شديد السفور في صفحتها العمالية بقلم "محمد بكير" يبارك حركة الجيش ويدعو إلى تعاون العمال وأصحاب الأعمال:

(وإن كان لا يفوتني أن أذكر العمال أنه بقدر ما فرحنا أشد الفرح لهذه النهضة الجديدة فقد حزنا لقيام فئة قليلة بانتهاز الفرصة للدعوة إلى الشيوعية الهدامة، وإذا كان البوليس قد تولى التحقيق في هذا الأمر ليقدم هذا النفر من الخونة إلى المحاكمة، فما كنت أريد ذلك. كنت أريد من العمال الذين نفروا من هذا العمل الشائن الشنيع أن ينَصبوا من أنفسهم قضاة ويحكموا على هؤلاء بالإعدام..). [٦]

إذن فقد أصدر الإخوان حكم الإعدام على العمال قبل أن يصدره الضباط بأيام وإذا كان حكما معنويا تبلور في هذا المطلب على صفحات الجرائد.. إلا أنه بلغ حدا من العنف



والسفور غير المسبوق في القضايا العمالية، وبرغم أنهم لا يوضحون في المقال السابق طبيعة الأحداث، وفي أي موقع كانت، إلا أنهم يهاجمون من خلالها أي مقاومة عمالية.

وبرغم أن البوليس قد قام بالقبض على هؤلاء العمال والتحقيق معهم كما هو واضح.

إلا أن الإخوان المسلمون لا يكتفون بتلك الإجراءات البوليسية، فما القبض على العمال وسجنهم ومحاكمتهم من وجهة نظر الإخوان إلا أمور تافهة، لا ترقى إلى حد إجراءاتهم الرادعة بتطبيق الحدود والإعدامات.

لقد أبرزوا أنيابهم التي طالما أخفوها تحت ابتسامة التسامح المفتعل. وفي تلك الفترة كانوا يتحدثون بصراحة ودون مواربة ظنا منهم أن مقاليد الأمور قد صارت في أيديهم، وأخذت فتاويهم في شئون المجتمع والسياسة تحتل مكانا بارزا في الصحف والمجلات وكثيرا ما نجد "مانشيتات" تمتلئ بالثقة في النفس وكأنهم الحكام المباشرين:

- رأي الإخوان فيما يشغل الرأي العام.
- المرشد العام يبلغه أمس إلى رئيس الوزارة.

بيان تفصيلي بالموقف تذيعه الجماعة غدا.

(حضر الأستاذ: حسن الهضيبي، المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، يصحبه الأستاذ: عبد الحكيم عابدين، السكرتير العام للجماعة في الساعة ١٢ والدقيقة ٥٤ بعد ظهر أمس إلى دار الرياسة، وقابلا رفعة "علي ماهر" واستمرت المقابلة نحو نصف ساعة. وصرح المرشد العام عند انصرافه لمندوب الأهرام بأنه أبلغ رفعة رئيس الوزارة، رأي الإخوان المسلمون في جميع المسائل التي تشغل بال الرأي العام الآن.

وسأله المندوب: هل كانت المقابلة مشبعة بروح التفاهم، فقال فضيلة المرشد: إن الإخوان المسلمون على حق دائما ولا يوجد من يختلف معهم.) (٧)

وبعد مقابلة الهضيبي لعلي ماهر بعدة أيام وقعت أحداث كفر الدوار، وبنفس الصراحة أعلنوا موقفهم من الأحداث، ونشرته لهم الصحف باعتبارهم قوة ذات وزن في الحياة السياسية.

(اجتمع مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمون مساء أمس واستعرض بعض الشئون العامة والخاصة، وما وقع أخيرا

في مصانع كفر الدوار، وقرر إذاعة البيان التالي، وقد أملاه علينا الأستاذ: عبد الحكيم عابدين، السكرتير العام للإخوان.

يهيب الإخوان المسلمون بأبناء الوطن عامة أن يتخذوا من أنفسهم حراسا لهذه النهضة وحفظة على جلال خطواتها وآثارها من كيد العابثين رؤوسا وأذنابا بأن يتعقبوا البغاة والمفسدين ويقدموا كل ما يسعهم من عون لإحباط أية محاولة يراد بها الإخلال بالأمن أو الإساءة إلى البلاد، رعاية للمسئولية التي تفرضها الوطنية الصادقة على كل مواطن كريم. المرشد العام حسن الهضيبي). [٨]

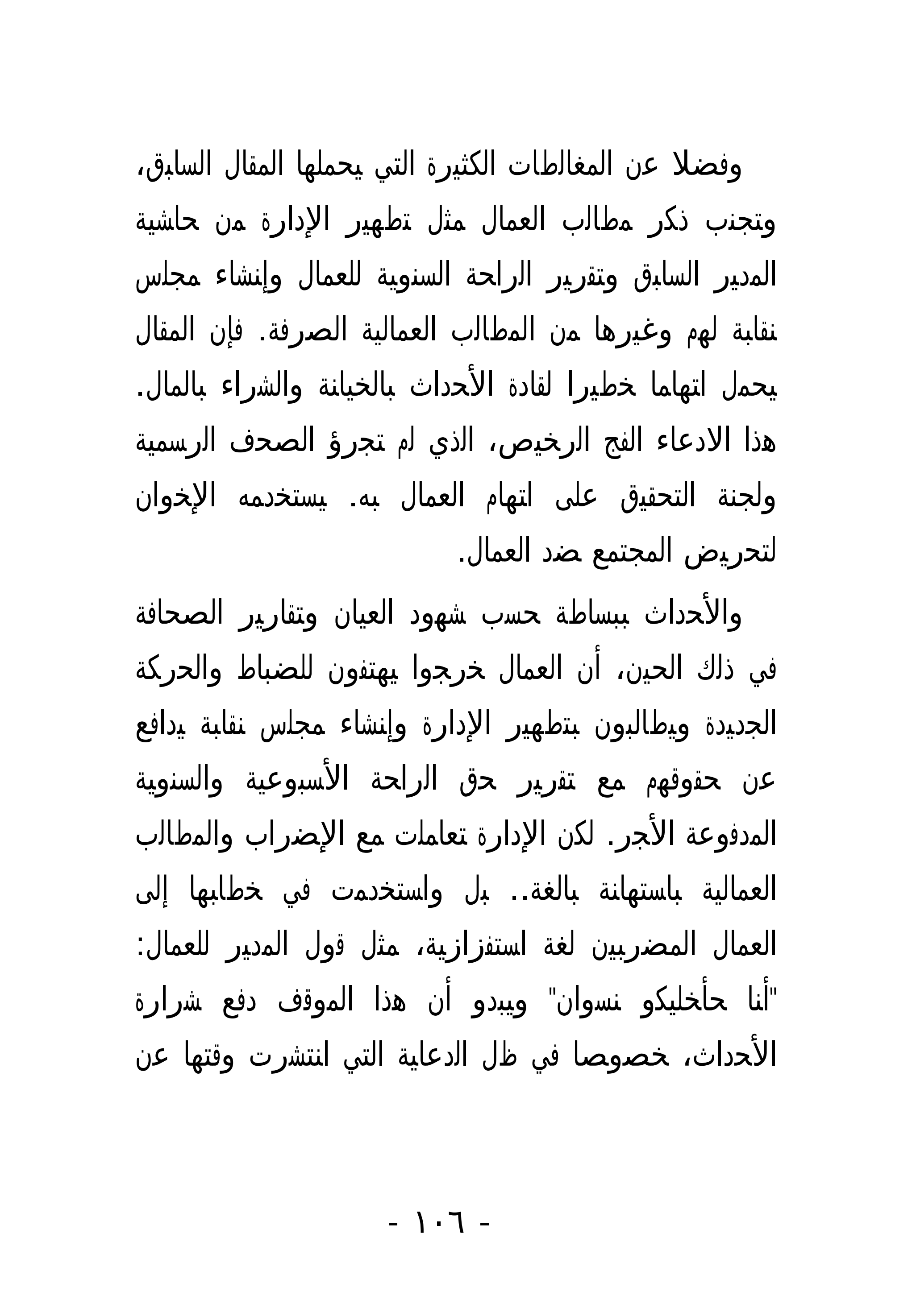
والمرشد العام الذي تحقق دوره أخيرا في إرشاد السلطات ضد العمال.. وفي المطالبة بتعقبهم بعد أن سمى المتظاهرين بالمضللين، وطالب بتعقب البغاة والمفسدين الذين هم عمال كفر الدوار، بعد كل ذلك تواصل صحافة الإخوان حملتها المسعورة ضد العمال المشتركين في الأحداث.

فنجد تحت عنوان: "ابحثوا عن المجرمين الحقيقيين" التحريض السافر التالي:

(في كفر الدوار، هذا البلد الآمن، وقع ما لم يكن في الحسبان، قام حفنة من العمال يخربون ويدمرون: أي وا

يخربون بيوتهم وهم لا يدرون – ويلقون بأيديهم إلى التهلكة وهم لا يشعرون.. يا لهم من سذج بلهاء، خدعهم المغرضون الخونة، وغرروا بهم ليعبثوا في الأرض الفساد، واستعملوهم لينشروا الفوضى والاضطراب.. أوعز هؤلاء الخونة الأنذال إلى حفنة من العمال البسطاء وأغروهم بزيف من القول وفضل من المال، قاموا يريدون أن يعركوا الصفو ويشوهوا جلال العهد الجديد عهد الحق والقوة والحرية.. يريدون أن يرجعوا بالأمة القهقري ويعيدونها سيرتها الأولى من الانحلال والفوضى والفساد لتعود إليهم الحياة.

يا رجال التطهير هؤلاء هم المجرمون الحقيقيون اسحبوهم من جحورهم وأخرجوهم من مخابئهم ومن وراء الجدار، وأعرضوهم أمام الشعب ليتعرفوا عليهم ولتستبين سبل المجرمين، ولا تأخذكم بأعداء ا والوطن رحمة ولا شفقة، فإنما جزاؤهم حدده الحق تبارك وتعالى "إنما جزاء الذين يحاربون ا ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض.). [٩]



وفضلا عن المغالطات الكثيرة التي يحملها المقال السابق، وتجنب ذكر مطالب العمال مثل تطهير الإدارة من حاشية المدير السابق وتقرير الراحة السنوية للعمال وإنشاء مجلس نقابة لهم وغيرها من المطالب العمالية الصرفة. فإن المقال يحمل اتهاما خطيرا لقادة الأحداث بالخيانة والشراء بالمال. هذا الادعاء الفج الرخيص، الذي لم تجرؤ الصحف الرسمية ولجنة التحقيق على اتهام العمال به. يستخدمه الإخوان لتحريض المجتمع ضد العمال.

والأحداث ببساطة حسب شهود العيان وتقارير الصحافة في ذلك الحين، أن العمال خرجوا يهتفون للضباط والحركة الجديدة ويطالبون بتطهير الإدارة وإنشاء مجلس نقابة يدافع عن حقوقهم مع تقرير حق الراحة الأسبوعية والسنوية المدفوعة الأجر. لكن الإدارة تعاملت مع الإضراب والمطالب العمالية باستهانة بالغة.. بل واستخدمت في خطابها إلى العمال المضربين لغة استفزازية، مثل قول المدير للعمال: "أنا حاأخليكو نسوان" ويبدو أن هذا الموقف دفع شرارة الأحداث، خصوصا في ظل الدعاية التي انتشرت وقتها عن

عدالة "مجلس الثورة" ودعوته إلى التخلص من الاستبداد والفساد السابق.

وفي حوالي الساعة العاشرة والنصف مساء يوم ١٢ أغسطس أعلن عمال وردية المساء الإضراب احتجاجا على سوء المعاملة التي يلقونها من رؤساؤهم وقلة أجورهم، وانضم إليهم عمال الوردية الثانية وبدأوا في التظاهر وإشعال النار في مكاتب الإدارة والأمن. وكانت تتردد بينهم صيحات (أحرقوا مكتب الظلم) أما آلات المصنع التي كانت تقدر بحوالي ١٠٠ مليون جنيه فلم تمس بسوء – لمزيد من التفاصيل انظر مجلة المصور ١٤٥٤ – ٢٢ أغسطس ١٩٥٢ م – وبسرعة غريبة تحركت وحدات من الجيش المرابط في الإسكندرية لنجدة بوليس كفر الدوار، وحاصرت منطقة المصانع بالدبابات والعربات المصفحة، وقبض على حوالي خمسمائة عامل حبسوهم داخل المصنع، وانتهى الحادث الأول عند هذا الحد.

وفي الساعة الثانية إلا عشر دقائق من بعد ظهر اليوم التالي جاء بقية العمال متظاهرين وقد حملوا العصي وفروع

الأشجار لإنقاذ زملائهم المقبوض عليهم. وكانت هذه المظاهرة بقيادة مصطفى خميس.

وتقدم المتظاهرون من المصنع وحاولوا اقتحام بابه الخارجي عنوة فتصدت لهم قوات الجيش وأطلقت عليهم نيرانها.. وتفرقت المظاهرة وسقط من القتلى ثلاث..

فما كل هذا الجنون الذي أصاب الضباط من اندلاع مظاهرات عمالية حتى ولو كانت تهتف بحياتهم..؟

إن الخوف من حركة الطبقة العاملة كان واضحا.. والرغبة في توجيه ضربة قاسمة إليها قبل أن يزداد تأثيرها السياسي. ومهما كانت الأسباب فقد كشف رد الفعل المسعور للضباط عن عداء غريزي ضد العمال.. وكان تحريض الإخوان المستمر يزيد من تأجيج نيران العداء. والمقالات السابقة مجرد نماذج للأكاذيب التي كان الإخوان يشيعونها. فإضرابات العمال العفوية لم يدبرها متآمرون ولا يمكن أن تشترى بالمال كما يدعي الإخوان الذين لا يستطيعون أن يفهموا هذا النوع من الأفكار ومشاعر الحرص على الآلات، لما تربوا عليه من روح المؤامرة.. ولذلك فهم أمام جميع الأحداث العمالية والجماهيرية يشيرون إلى أصابع خفية

دبرت الأمر وحركته.. فهل هذا منطق يمكن أن يفهم طبائع الأمور..؟؟

*   *   *

بعد أحداث كفر الدوار اتخذ الضباط من "سيد قطب" مستشارا لهم، وظهرت بصماته على العديد من قرارات مجلس الثورة المتعلقة بشئون العمل والعمال. ونذكر في تلك المناسبة حادثة وفد المال الذي قام بزيارة مجلس قيادة الثورة لمناقشة موضوع انعقاد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام، والذي كان مقررا انعقاده أيام ١٤، ١٥، ١٦ سبتمبر بعد أيام قليلة من إعدام خميس والبقري.

ومن المضحك أن يكون المسئول عن شئون العمال هو "عبد المنعم أمين" رئيس محكمة كفر الدوار، ومستشاره "سيد قطب"، وحينما كان وفد العمال يناقش موضوع المؤتمر والاتحاد، تدخل سيد قطب في الكلام بثقة بالغة وجفاء غريب قائلا:

إن النقابات في حاجة أولا إلى أن تطهر مشيرا بالتحديد إلى أحمد طه سكرتير نقابة عمال ماركوني.

والإخوان كما هو واضح كانوا ضالعين مع الضباط في الفترة الأولى، ولم تكن مواقفهم مجرد استنكار أو شجب كغيرهم من القوى السياسية – وحينما شكلت أول وزارة برئاسة اللواء: محمد نجيب، يوم ٧ سبتمبر ذلك اليوم الحزين الذي نفذ فيه حكم الإعدام في شهداء الطبقة العاملة.

ودشنت أول وزارة وجودها بلف حبل المشنقة حول رقبة العاملين.

وكانت هذه الوزارة تضم اثنين من الإخوان المسلمين.. الذين اشتركوا أيضا في لجنة الدستور الجديد. [١٠]

ويبدو أن تعثر انعقاد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام الذي كان العمال يعقدون عليه الآمال، كان بسبب العوائق الشديدة التي وضعها عبد المنعم أمين، رجل المخابرات المركزية الأمريكية، وسيد قطب رجل الإخوان المسلمين.

ونشرت الصحف يوم ١٢ سبتمبر قرار مجلس الثورة بتأجيل موعد انعقاد المؤتمر التأسيسي للاتحاد إلى أجل غير مسمى.

وكانت هذه هي الضربة الثانية للآمال العمالية في غضون أيام قليلة. وظلت برقيات الاستنكار تنهال على مجلس الثورة

آتية من الاتحادات العالمية وجمعيات حقوق الإنسان في الخارج لتؤدي جزءا من الدور الذي يقم به أحد على الإطلاق في مصر.

وحتى الآن لم تفتح الطبقة العاملة سجلها التاريخي لتكشف تاريخ الجرائم التي حدثت في حقها.. وهي كثيرة.. كثيرة..

* * *

القمع في ثياب قانونية

صدر قانون العمل الجديد وفي صدره نفي حق الإضراب وتحريمه تحريما قاطعا، بالإضافة إلى الموافقة على مبدأ الفصل التعسفي للعمال، مما يؤكد أن روح العداء للطبقة العاملة كانت تسود في مجلس الضباط، وأنهم كانوا على استعداد لاستخدام كل الوسائل من أجل سحق إرادة العمال الجماعية تحت القدم العسكرية الغليظة.

ومحمد نجيب يكتب في مذكراته إشارة إلى الجو السائد آنذاك:

(كانت ظروف التخوف من انفجارات عمالية تدفع عددا كبيرا من أعضاء المجلس إلى الموافقة عليه – يقصد الموافقة على قانون العمل الجديد الذي أعده عبد المنعم أمين ومستشاره سيد قطب – ولكن خالد محيي الدين اعترض على ذلك مبديا حججا سليمة تناقض المشروع، والتيار الغالب كان يدافع لإصدار قانون، لولا تهديد خالد محي الدين بالاستقالة وتأييدي له في رأيه، وحرصا على وحدة المجلس، أعدت

المشروع للمناقشة وتقرر منع الفصل التعسفي للنشاط النقابي، على أن تؤجل حقوق العمال لحين إقرار الدستور.) [١١]

ولكن بعد ذلك أقرت اللجنة الثلاثية لمراجعة تشريعات العمل والتي كان عبد المنعم أمين عضوا محوريا فيها، بالإضافة إلى وجود ممثلين عن الحكومة وأصحاب الأعمال وممثلين عن العمال، مبدأ الفصل التعسفي الذي أثار الضجة السابقة، كما ظل تحريم الإضراب معمولا به حتى الآن.

(وظهرت مناقشة أعضاء مجلس قيادة الثورة أنهم لا يوافقون على إعادة العمال لعملهم إذا ثبت للمحكمة أن الفصل التعسفي بلا سبب أو مبرر). [١٢]

* * *

البوليس يتنكر في ثياب العمال

ثم دار الزمن دورته.. وانفض التحالف غير المقدس بين الإخوان وعبد الناصر وصدر بيان طويل من مجلس القيادة يتهم فيه الإخوان بأن لهم اتصالا بالإنجليز وأنهم يعيدون تشكيل الجهاز السري، وفي ١٥ يناير ١٩٥٤ صدر قرار مجلس الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمون بأغلبية الأصوات واعتقال ٤٥٠ عضوا منهم.

وسرعان ما دب الخلاف داخل مجلس "قيادة الثورة" نفسه بين ناصر ونجيب فيما عرف بأزمة مارس ١٩٥٤، كان نجيب يتمسك بطلب عودة الجيش إلى ثكناته وإجراء انتخابات برلمانية وعودة الأحزاب حتى تتحسن صورة المجلس في نظر الشعب.

بينما كان عبد الناصر يتمسك بقرار إلغاء الأحزاب وعدم عودة الجيش بحجة أن الأمور لم تهدأ بعد.

وفكر "ناصر" في محاربة نجيب بسلاح الجماهير والمظاهرات المؤيدة له.. فأجرى مباحثات جديدة مع الإخوان

المسلمون لضمان تعاونهم أو على الأقل عدم تدخلهم لصالح خصمه.

كان عبد الناصر يريد أن يظهر أمام الرأي العام أن الشعب يؤيده ويرفض نجيب، وعن طريق الصاغ "أحمد طعيمه"، أحد المشرفين على هيئة التحرير، حاول استمالة بعض النقابيين الصفر إلى جانبه، ونجح في اجتذاب "الصاوي أحمد صاوي" والاتفاق معه على إضراب عمال النقل. كما عبأ "الصاغ: مجدي حسنين" عمال هيئة التحرير.

وفي اليوم المحدد للتظاهر اتجهت قوات الحرس الوطني في ثياب العمال ورفعوا الشعارات المؤيدة لعبد الناصر.

وبعدها سارع عبد الناصر إلى تحريم التظاهر.. والقبض على نجيب، وتحديد إقامته ثم انطلق في التخلص من تحالفه غير المقدس مع الإخوان بعد حادث المنشية الشهير..

وبدأت المحنة الثانية للإخوان في أكتوبر ١٩٥٤.

وفي ٩ ديسمبر صدرت أحكام الإعدام على عدد من الإخوان.

فذاقوا من نفس الكأس التي طالما طالبوا بتجريعها للطبقة العاملة!!

هوامش أحداث كفر الدوار

الأهرام: ١٥ أغسطس ١٩٥٢، ص ١.

اجتماع مفاجئ لمجلس الوزراء – إضافة مادة جديدة لنظام الأحكام العرفية. تأليف محكمة عسكرية لجرائم كفر الدوار:

أجمع الوزراء عند حضورهم إلى دار الرياسة أنهم لا يعرفون ماذا أعد الرئيس علي ماهر ليعرضه عليهم. ولم يتول الرئيس علي ماهر رياسة الاجتماع إلا في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وظل المجلس مجتمعا، نصف ساعة غادر بعدها الرئيس دار الرياسة بعد أن صرح بأن المجلس وافق على إصدار مرسوم بقانون بإضافة مادة جديدة إلى قانون إعلان الأحكام العرفية، وأن هذه المادة الجديدة خاصة بإنشاء مجلس عسكري، وكان الرئيس قد وقع وهو في قاعة اجتماعات مجلس الوزراء، بوصفه الحاكم العسكري العام، الأمر العسكري رقم ٤١ الذي نص في المادة الأولى منه على أن تؤلف محكمة عسكرية عليا للفصل في الجرائم التي نشأت عن الحوادث التي وقعت يومي ١٢ و١٣

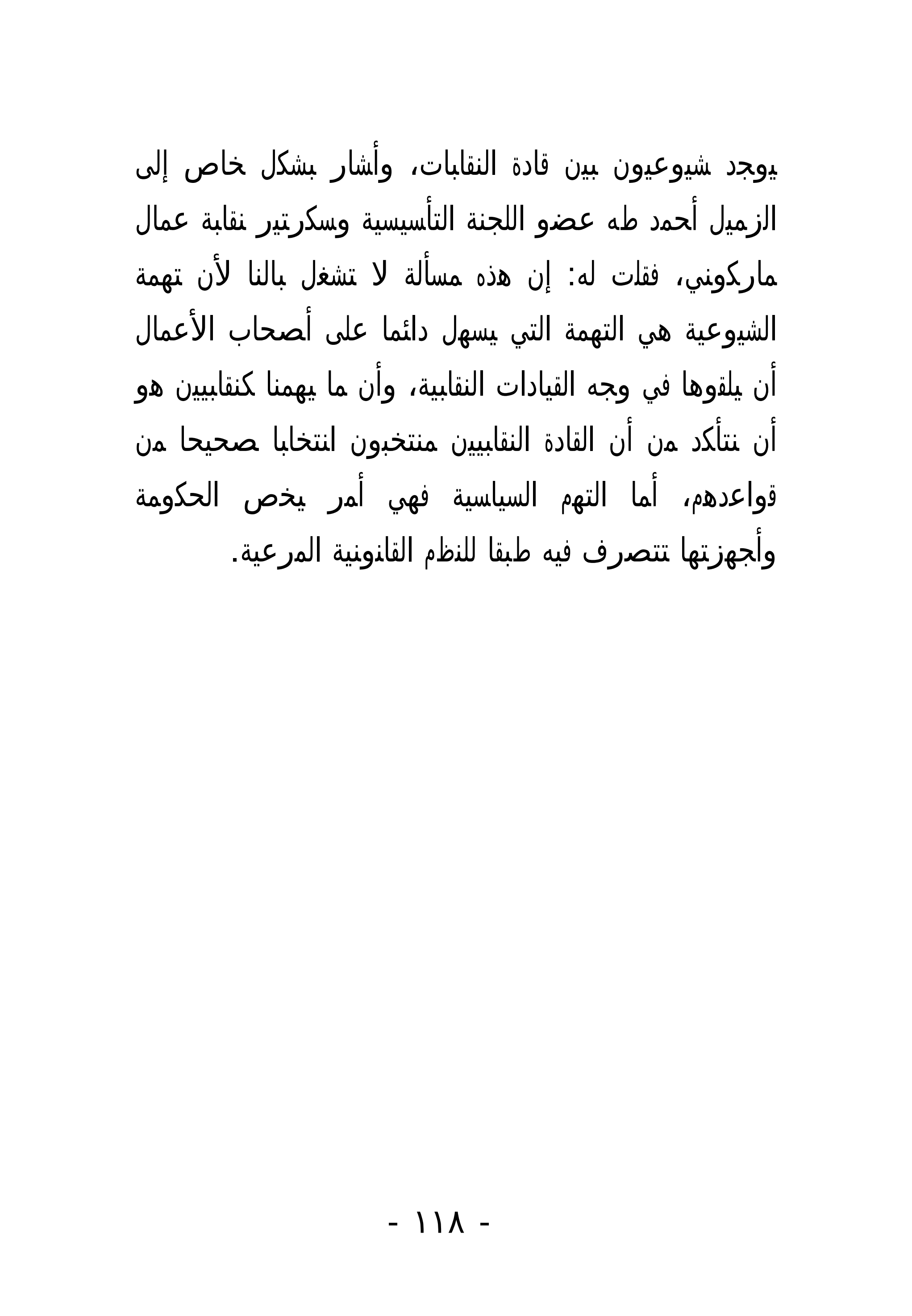
أغسطس سنة ١٩٥٢ في كفر الدوار، وما يرتبط بها من حضرات: بكباشي: عبد المنعم أمين، رئيسا، وبكباشي: محمد عبد العظيم شحاته، وصاغ: أحمد وحيد حلمي، وصاغ: محمد بدوي الخولي، ويوزباشي: فتح ا رفعت أعضاء أصليين.

- الأهرام ٢٨/ ٧/ ١٩٥٢ ص ٦

الإخوان يؤيدون الجيش ويؤازرونه ويدعون إلى حماية نهضته الصادقة، بيان للمرشد إلى الإخوان بوادي النيل:

والإخوان المسلمون – بطبيعة دعوتهم – خير سند لهذه الحركة، يظاهرونها ويشدون أزرها حتى تبلغ مداها من الإصلاح، وتحقق للبلاد ما تصبو إليه من عزة وإسعاد. وإن حالة الأمن لتتطلب منكم – بوجه خاص – أعينا ساهرة ويقظة دائمة.

٣- استأنفنا الحديث وأصر المرحوم سيد قطب على حكاية التطهير هذه، فأخذت أشرح له طريقة التشكيل النقابي والتي تقوم على الإرادة الحرة لأعضائه حيث ينتخبون قياداتهم بالانتخابات، وقلت له إنه لم يؤخذ على النقابات حتى الآن أية انحرافات مالية أو سياسية أو نقابية، فقال لي: إنه



يوجد شيوعيون بين قادة النقابات، وأشار بشكل خاص إلى الزميل أحمد طه عضو اللجنة التأسيسية وسكرتير نقابة عمال ماركوني، فقلت له: إن هذه مسألة لا تشغل بالنا لأن تهمة الشيوعية هي التهمة التي يسهل دائما على أصحاب الأعمال أن يلقوها في وجه القيادات النقابية، وأن ما يهمنا كنقابيين هو أن نتأكد من أن القادة النقابيين منتخبون انتخابا صحيحا من قواعدهم، أما التهم السياسية فهي أمر يخص الحكومة وأجهزتها تتصرف فيه طبقا للنظم القانونية المرعية.

هوامش الفصل الثاني

1- أنور السادات: أسرار الثورة المصرية، تقديم: جمال عبد الناصر، دار الهلال ١٩٥٧.

2- مجلة الدعوة: السنة الثانية، العدد ٧٦، الثلاثاء ٧ ذي القعدة، ٢٩ يوليه ١٩٥٢.

3- محمد نجيب: كلمتي للتاريخ، دار الكتاب النموذجي، ص ٦٥.

4- المصور: العدد ١٤٥٤، ٢٢ أغسطس ١٩٥٢، ص ٢٦، على هامش حوادث كفر الدوار.

5- محمد نجيب: المصدر السابق.

6- مجلة الدعوة: الثلاثاء ١٤ ذو القعدة ١٣٧١ هـ/ ٥ أغسطس ١٩٥٢، ص ١٣.

7- الأهرام: ٣١/ ٧/ ١٩٥٢، ص ٧.

8- الأهرام: ١٥/ ٨/ ١٩٥٢، ص ٦.

9- الدعوة: ٢٨ ذو القعدة ١٣٧١ هـ - ١٩ أغسطس ١٩٥٢ – الحكم على المتهم الأول في قضية كفر الدوار بالإعدام، ص ٨.

١٠- المصور: ٦ مارس ١٩٥٣ – ١٤٨٢ ص ٣٤.

١١- محمد نجيب: المصدر السابق، ص ١١٦.

١٢- محمد نجيب: المصدر السابق.

الفصل الثالث

إخوان اليوم وأساليب الأمس

الفترة من ١٩٧٣ وحتى ١٩٨٩

عفريت الإخوان يعاود الظهور

لسنوات طويلة.. طويلة.. خلت الحياة السياسية في مصر من جميع الأصوات اللهم إلا صوت السلطة الناصرية.

ووجد الإخوان – بعد حمامات التعذيب الساخنة – أن مناخ الحياة قد صار مفارقا لهم كل المفارقة... وهاجر قادتهم هجرة المال الكبرى إلى بلاد النفط أو إلى مراكز رأس المال الأجنبي في أمريكا وألمانيا الغربية.

أما من ظل في مصر فقد انكفأ على جراحه يلعقها دون أن يجرؤ على محاولة الإطلال برأسه ثانية.

وعاش الشعب وهم النضال الوطني ومحاربة الاستعمار، حتى فوجئ الجميع بالاستعمار في عقر الدار عشية ٥ يونيو ١٩٦٧. وبات النظام عاريا إلا من ضعفه واهترائه.

وسرت الصدمة في الجسد المخدر تهزه بعنف. وانفجرت مظاهرات العمال والطلاب عقب فضائح محاكمات الطيران ١٩٦٨، لتبدأ موجة من انتعاش اليسار الجديد في الجامعة أساسا، وربما حدث تماس مع بعض القيادات العمالية.

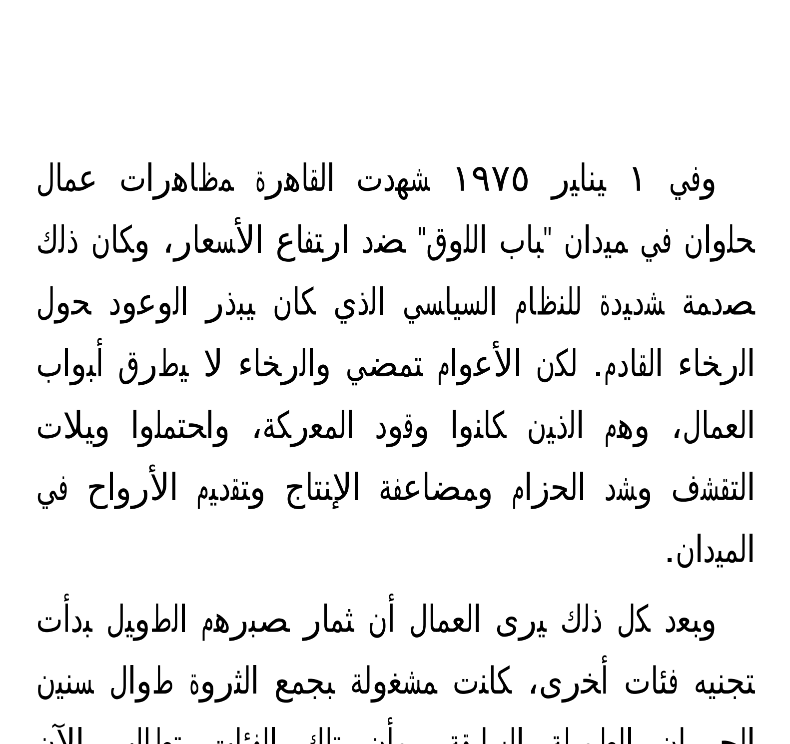
واتسعت موجة التمرد، وعجزت أجهزة البوليس والإعلام عن احتواء الموقف وتسكينه. صار المناخ العام في المجتمع المصري يساريا. ودفع هذا الضغط الداخلي إلى خوض حرب أكتوبر ١٩٧٣ لتبدأ بعدها سلسلة من التغييرات، وكأنه لم يكن يكفي سحب البساط من تحت أقدام الحركة الطلابية بتلك الحرب المحدودة والنصر العارض والتغييرات الاجتماعية التي أعقبت ذلك، ولكن السادات سمح بإعادة بعث الإخوان المسلمون لموازنة الموقف السياسي. فقابل سرا زعماءهم الذين فروا أمام البطش الناصري إلى الخارج وكونوا ثروات كبيرة شكلات أحد أسس الدعم المادي للإخوان المسلمون في عودتهم الجديدة.

وعقب ذلك بدأ التدليك الجزئي لجسم الإخوان المسلمون في مصر لتسري فيه الحياة مرة أخرى ويخرجوا من القمقم.

أفراح الشعب.. أحزانهم

بدأ الإخوان المسلمون في الظهور مرة أخرى كأقلية ليس لها أي تأثير، وبإذن من النظام حولوا مجلتي الدعوة والاعتصام من مجرد نشرات صفراء ذات طابع وعظي صرف، إلى مجلات صحفية حملت عبء نشر دعوتهم، وقادت حملة مكثفة للهجوم على الشيوعية، وحاول الإخوان أن يزرعوا وجودهم في الجامعة وأن يجتذبوا جماهير الطلاب التي كانت ملتفة حول "اليسار الجديد" في سنوات ما قبل أكتوبر ١٩٧٣.

وشهدت ساحة الجامعة في ذلك الحين صدامات دموية صغيرة بين الجماعات الإسلامية المسلحة بدعم وتأييد السلطة وبالجنازير الحديدية، وبين الشيوعيين العزل، الذين بدءوا يعانون من الانحسار الجماهيري، وتسارعت وتيرة هبوط مؤشر اليسار في الجامعة بسبب عوامل كثيرة كان أهمها الانكفاء على المطالب القديمة دون مراعاة لعوامل التغيير التي بدأت تشق طريقها في جسم المجتمع.



وفي ١ يناير ١٩٧٥ شهدت القاهرة مظاهرات عمال حلوان في ميدان "باب اللوق" ضد ارتفاع الأسعار، وكان ذلك صدمة شديدة للنظام السياسي الذي كان يبذر الوعود حول الرخاء القادم. لكن الأعوام تمضي والرخاء لا يطرق أبواب العمال، وهم الذين كانوا وقود المعركة، واحتملوا ويلات التقشف وشد الحزام ومضاعفة الإنتاج وتقديم الأرواح في الميدان.

وبعد كل ذلك يرى العمال أن ثمار صبرهم الطويل بدأت تجنيه فئات أخرى، كانت مشغولة بجمع الثروة طوال سنين الحرمان الطويلة السابقة، وأن تلك الفئات تطالب الآن بالتغييرات التي تمكنها من السيطرة المباشرة على الحياة الاقتصادية والسياسية.

ومظاهرات العمال في "باب اللوق" كانت رضا عفويا لمظاهر الثراء المتراكم في جانب، والفقر والفاقة في الجانب الآخر.

وبالطبع لقيت تلك المظاهرة العمالية قمعا شديدا، وتم القبض على حوالي ١٢٠ عاملا وإحالتهم إلى النيابة.

وشاركت مجلتي الدعوة والاعتصام صحافة الحكومة حملتها المسعورة ضد انتفاضة العمال وضد الشيوعية في نفس الوقت.

* * *

وتحريض الإخوان ضد المظاهرات العمالية ليس جديدا، فهم يقدمون أنفسهم كفصيل يمكن الاعتماد عليه وقت تصاعد الخطر العمالي، كما لو كانوا تيارا سياسيا يوصل الطلبات إلى منازل الرأسمالية فيخلصها من أعدائها ويسكن المجتمع ويهيئ فرص تكثيف الربح.

وسرعان ما انتهزوا فرصة انفجار أحداث مظاهرات "باب اللوق" لتوجيه أصابع الاتهام:

(حوادث الهدم والتخريب الأخيرة وراءها تنظيمات ماركسية وشيوعية يجب القضاء عليها.) [١]

(إن على ولاة الأمور أن يضربوا بيد من حديد على رؤوس هذه الفئة الهدامة حتى لا تقوم لهم في دولة العلم والإيمان قائمة.) [٢]

وطبعا لم يكن ولاة الأمور في حاجة إلى دعوة الإخوان للتنكيل بالعمال، فقد كانت أعمال القمع والقبض والسجن قد

وقعت بالفعل تحت اسم "أخلاق القرية". تلك الأخلاق التي استخدم السادات "أنيابها" الديمقراطية كذريعة لضرب الحركة الطلابية والعمالية وكل من اختلف معه بصفته كبير العائلة.

وراح الإخوان يناشدونه بتلك الصفة – التي ليست له – بأن يضرب العمال "بيد من حديد".

وكثيرا ما نشرت مجلة الاعتصام شكرا وتقديرا للسيد الرئيس مع المبالغة في إظهار الود والمحبة:

"سيدي الرئيس:

نبارك جهادك الكريم في بناء صرح الدين من جديد بعد طول خراب.. لبنة للعلم.. ولبنة للإيمان.. وهذا هو الطريق.. الأمل فيكم كبير.. يا صاحب القلب الكبير.

حسن عاشور". [٣]

ولم تنته رسائل الحب السياسي إلى السادات صاحب القلب الكبير، وصاحب الأشياء الأخرى التي يحتاجها الإخوان في انطلاقتهم الجديدة.. وكان الإخوان يباهون بتلك العلاقة قبل أن تأخذ منحنى آخر في نهاية السبعينات حينما شكاه التلمساني إلى ا في لقاء الإسماعيلية.. ففي زهرة الحب "السياسي" تنشر الاعتصام:

(روعة الإسلام في لقاء الحاكم والمحكوم.. بين السيد الرئيس السادات والأستاذ عمر التلمساني:

كم نود أن يتكرر هذا اللقاء مرات ومرات.. على أن يكون في شكل محدود قاصر على رجال الدعوة ورؤساء الهيئات الإسلامية.. وعلى أن يكون الحوار أوسع نطاقا دون تسليط الأضواء لكي لا يتقيد المتحدثون بروتين معين، ولكي يكون الحوار أكثر حرية وصراحة وانطلاقا.. ولكي يفتح كل متحدث صدره وقلبه. فليس كل ما يجب أن يقال يجب أن يذاع..) [٤]

ولكن ما الذي لدى الإخوان ليخفونه عن الشعب..؟ لماذا يريدون مزيدا من اللقاءات السرية بينهم وبين الرئيس أو بين رجال الرئيس وممثلي رأس المال؟ وإذا كانت الأحداث تكشف جانبا.. فالتعتيم المتعمد لا يزال يغلف التفاصيل والحقائق.. ولقد تكررت اللقاءات واستمر التعاون بين الإخوان والسادات عدة سنوات.. أتت بعدها جفوة شديدة، وظهر الوجه الآخر الذي كان كل طرف يتفنن في إخفائه والتمويه عليه ليحقق ما يريد من استخدام الطرف الآخر، ولعبة الاستخدام السياسي لا تتوقف على ذكاء أحد الطرفين

– مهما بلغ – لإنها تحمل في القلب منها عوامل الاختلاف والانهيار المؤكد..، كما حدث حينما انقلب السادات على الإخوان، ثم جاءت نهايته على يد جماعة الجهاد – أحد الأبناء العاقين للإخوان.

المهم أنه في فترة التعاون السياسي أقام الإخوان مهرجان دعاية متعدد الأهداف للهجوم على الشيوعية، والهجوم على الحركة العمالية، ودعوة الحكومة لإقامة الشريعة الإسلامية، وكان ولاة الأمور ينتظرون هذا النوع من دعاية الإخوان.. ينتظرون قميصهم الذي يمكن أن يعبأ فيه قطاع آخر من الجمهور يقف في معارضة الجمهور الثائر اليساري المزاج.

وتظل مجلات الإخوان تبث دعايتها ضد الشيوعية والحركة العمالية، حتى كان الحدث الكبير الذي هز جذور مصر وهدد كل نظمها ومؤسساتها.

* * *

شبح يناير يطاردهم

في ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ استيقظت البلاد على انتفاضة عارمة بعد قرار رفع الأسعار، وكان للطبقة العاملة سبق تفجير شرارتها، فاندلعت المظاهرات في كل المدن الكبرى وجذبت خلفها الجمهور العريض.

بدأ عمال حلوان أحداث القاهرة. وبدأ عمال الترسانة البحرية أحداث الإسكندرية، كما اشترك في الأحداث عمال كفر الدوار وكفر الزيات وشبرا الخيمة وغيرها من المواقع العمالية – فيما عدا المحلة الكبرى التي كانت تعاني من آثار القمع الواقع عليها بعد إضراب عام ١٩٧٥، والذي فضته سلطات البوليس والجيش بعنف شديد – وفيما عدا هذا الموقع العمالي كانت الطبقة العاملة هي قائدة أحداث يناير ١٩٧٧، سرت بين صفوفها جميعا شرارة الانتفاضة بشكل عفوي مذهل دون أي تدبير أو اتفاق مسبق. وكانت هذه الأحداث مفاجأة للجميع بما فيهم اليسار، الذي كان لا يزال قريبا من الجمهور، قادرا على التأثير فيه ولديه كوادر طلابية من أبناء هذا الجمهور سرعان ما اندمجت في المظاهرات وصارت جزءا منها.

أما القابضون على زمام الحكم، فقد فوجئوا بالأرض تهتز من تحتهم وحبسوا الأنفاس، وظنوا أن دعائم أبنيتهم قد انهارت فوقهم.. ثم وبعد قليل أدركوا أن العاصفة كانت شديدة العفوية، وليس لديها أية قيادة جاهزة، وأن مارد الشيوعية الذي يرتجفون منه لم يكن مهيأ لقيادة الأحداث وإن كان ملتحما بها.

أما الإخوان المسلمون فقد كانت مفخرتهم الكبرى أنهم لم يشاركوا الشعب في ثورته. وأخذوا يطالبون بإنزال أقصى العقوبات عليه فيكتب "محمد عبد القدوس" بفرح غريب:

(أحداث ١٨ و١٩ يناير أثبتت أصالة الجماعات الإسلامية.) [(٥)]

ويستشهد برأي حافظ سلامة، الذي يسميه بطل المقاومة الشعبية، مع أنه كان يهاجم في هذا الحديث الحركة الشعبية ويطالب بإنزال العقاب على الشعب القائم بها وعلى قياداته الطبيعية.

(العناصر الإسلامية لم تخدع بهذه الأحداث مما أفسد مخططها. فمثلا الطلبة المنضمون إلى الجماعات الإسلامية في الجامعات والمعاهد لم يخدعهم بريق الوعود الزائفة مما

كان له أثر كبير في إمكان القضاء على الفتنة بسرعة. وكنا نتمنى أن يدرك المسئولون هذه الوقفة المؤمنة من الجماعات الإسلامية المؤمنة، والتي أثبتت في هذه الأيام السوداء أصالتها وأصالة الفكر الإسلامي الذي تعتنقه). (٦)

ويبدو أن حافظ سلامة، حامل لواء الدعوة الإسلامية، وحامل طربوش الخلافة العثمانية، لم ينتبه إلى أن الانتفاضة أخمدت ليس بسبب عدم اشتراك الجماعات الإسلامية فيها، بل بفعل قوات الجيش التي زحفت على المدن وحاصرت الميادين وتراجع الحكومة عن قرارات رفع الأسعار. وبعد إجراءات القمع الواسعة بدأ النظام في التقاط أنفاسه وصدرت مجلة الاعتصام وفي افتتاحيتها مانشيت:

(رفضتها الأمة ثورة حمراء فكانت ليلة سوداء) (٧)

ويبدو أن شدة الأحداث أفقدت "حسن عاشور"، كاتب الافتتاحية وصاحب مجلة الاعتصام وأحد قيادات الإخوان، حذره، إلى حد أن يسمى الليلة التي عبر فيها الشعب عن رفضه لارتفاع الأسعار بأنها ليلة سوداء. ويضع نفسه في سلة واحدة مع هذا النظام المرفوض من الشعب فيستخدم

ضمير الفاعلين "نا" للتعبير عن الإخوان والنظام الحاكم في وحدة واحدة:

(رفضتها الأمة ثورة حمراء فكانت ليلة سوداء. نشطت فيها الماركسية من عقالها، وفكت الشيوعية من إسارها بعد أن أعلناها دولة للحريات وأغلقناها سجونا ومعتقلات، وقصفنا قلم الرقيب داخل الجرائد والمجلات). [٨]

أما عباقرة مجلة الدعوة "عمر التلمساني – صلاح شادي" فيعجزان عن فهم الأحداث ولا يجدان لها سببا سوى أنها "مرض أصاب طوائف الشعب" وبعد أن يجرموا الأحداث وصانعيها، فإنهم يقدمون روشتة الإخوان التي طالما قدموها إلى الحكام وهي تطبيق الشريعة الإسلامية، (كلمة السر التي يختفي تحتها رغبتهم في الصعود إلى الحكم).

وفي كل فرصة كانوا يذكرون بأنهم لم يشاركوا في تلك الأحداث، وأنهم رجال الساعة الذين يجب أن تذلل لهم كل وسائل وإمكانيات الانتشار عبر الأجهزة الرسمية وغير الرسمية.

لقد كانت فرصتهم لاعتماد عودتهم رسميا، واتخاذ الحكومة لهم كعصا نتوكأ عليها شعبيا.. وكان أول نشاط

علني لجماعة "شباب محمد" بعد عودتها الجديدة في سبتمبر ١٩٧٦ وبعد توقف نشاطها حوالي ثلاثة عشر عاما هو المبادرة إلى إرسال برقية إلى السيد رئيس الجمهورية، الذي كانت جمهوريته معلقة في الهواء بلا جمهورية يقولون له فيها:

ينتهز شباب سيدنا محمد صلى ا عليه وسلم ذكرى مولد سيد المرسلين صلى ا عليه وسلم، فيهنئون سيادتكم بهذه المناسبة الكريمة ويدعون لك بالخير ويشجبون حوادث ١٨ و١٩ يناير الإجرامية التخريبية ويطلبون حل وإلغاء حزب اليسار؛ لاحتضانه لمبادئ مستوردة هدامة وثبوت بصمات بعض كبار أعضائه في حوادث هذه الفتنة.) [٩]

هذه البرقية التي كان من الأجدر أن يكون كاتبها وزير الداخلية كمسوغ لحملة اعتقالات واسعة تقوم بها الشرطة، لا أن يكتبها رئيس جماعة سياسية ضد الشعب ويبعث بها إلى كل الصحف الحكومية، واصفا الجمهور بالإجرام والتخريب وغيرها من الألفاظ التي لم تجرؤ الحكومة على النطق بها إلا بعد أن التقطت أنفاسها، وتحسست مقاعدها وقبضت على زمام الأمور.!!

وقد وجد الإخوان المسلمون أحداث ١٨ و١٩ يناير فرصة للمناداة بتطبيق الحدود:

(في إقامة حد ا أمن للمجتمع وتطهير للجاني.) [١٠]

ويعرض المقال لحدود: الحرابة عقابا على جريمة قطع الطريق والسرقة والزنا والشرب، ثم يعطون للحاكم التعزير ليتخذ به إجراءات العقاب الاستثنائية.

لقد كانوا يريدون توقيع أقصى أحكام ممكنة ضد اليسار، فزينوا للحاكم فكرة الخوض في نهر الدماء مستخدما سلاح الحدود الإسلامية.

ولقد أصيبوا بخيبة أمل كبيرة حينما اقتصر الأمر على سجن قيادات الأحداث لفترات قصيرة، وبعد سنوات حينما صدرت أحكام قضية "يناير" نشرت مجلة الدعوة مقالا يفضح مشاعرهم: (لعلنا نذكر أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ في مصر، والتي أطلق عليها انتفاضة الحرامية، والتي نسبت وقتها إلى الشيوعيين المحليين ونذكر ما صاحبها من قتل وتخريب. بعد ثلاث سنوات من المحاكمة المتراخية أمام المحاكم العادية صدرت الأحكام منذ زمن قريب وكانت

أقصى عقوبة ثلاث سنوات سجنا. ونحن لا نعترض على ما تم ولا نستقل مدة العقوبة ولا نتهم القضاء!). [١١]

والنفي المستخدم في المقال السابق هو نفي الإثبات كما يقولون، فكل شيء يشير إلى أنهم يعترضون على الأحكام ويوعزون إلى قرائهم أن مدة العقوبة كانت قليلة جدا ويتهمون القضاء.. لقد كانوا يريدون أقصى العقوبة فور وقوع الأحداث وليس بعد ثلاث سنوات من المحاكمة أمام المحاكم العادية، يعتبرون السجن ثلاث سنوات تراخيا وهم الذين كانوا يصرخون من وطأة السجون.. ولكنهم هنا يسخرون من تقديم العمال والطلاب والمثقفين للمحاكم العادية، فهل كانوا يريدونها محاكم عسكرية تنصب المشانق مرة أخرى..؟؟؟

وظل شبح يناير هو العفريت الذي يلوح به الإخوان لضرب اليسار.. يذكرون به الحكومة في كل موقف.. ويطالبون بحرية أوسع لحركتهم.. ومنذ فبراير ١٩٧٧، انطلقوا يدعمون مراكزهم في الجامعة والنقابات المهنية يجتذبون كوادر جديدة – تُخرج في ذلك العام والأعوام التالية صفا جديدا من القيادات الشابة خاضوا به انتخابات اتحاد

طلاب الجامعة، ثم انتخابات النقابات المهنية ثم انتخابات مجلس الشعب.

وكان الإخوان حريصين في أحداث يناير على تذكير قواعدهم الشبابية التي ربما تعجبها الأحداث وتشارك الانتفاضة الشعبية حمايتها، بتحذير حسن البنا:

(أيها الإخوان المسلمون وبخاصة المتحمسين المتعجلين منكم: ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد.) [١٢]

كما نشرت الدعوة بيان الجماعة الإسلامية الذي وزع داخل الجامعة عقب الأحداث تحت عنوان الجماعة الإسلامية تحذر:

(أخي المسلم.. إن يدا خبيثة تمتد في الظلام لتنتزع منك ما حققته من مكاسب ولترفعك قسرا إلى طريق ما أبعده عن

مسارك وهدفك، ولتجرك جرا إلى صدام طائفي مفتعل غريب عنك وعليك.. لا ترضاه ولا يرضاه ا لك.. يا أخي كن حذرا وإياك والحماس الأعمى فإنه يسلب العظماء أقدارهم.. نعم إن ا لا يرضى الظلم لعباده، ولا يرتضي لهم السير في الظلام وبعيدا عن البينة.. فتبين يا أخي ما يكاد لك.. وما يراد بك ولا تحقق للعملاء أغراضهم.

أمين الجماعة

خالد داود.) [١٣]

وإذا كان فخر الإخوان المسلمون الأكبر أنهم لم يشاركوا في الأحداث التي هب فيها الشعب كله ضد القرارات الحكومية المتعنتة.. وأنهم بسطوا أياديهم إلى الحاكم وأجهزة الردع يطالبونهم باتخاذ أقصى الإجراءات ضد هذا الشعب المتمرد.

فإنهم سرعان ما نالوا النتيجة التي كانوا يرجونها من ترك الفرصة لهم للنمو والانتشار من جديد.. حيث تركت لهم الحكومة هوامش عديدة لحرية الحركة.. وشهدت السنوات التالية لعام ١٩٧٧ تخرج عدد كبير من كوادرهم الطلابية.. فدفعتهم قيادة الجماعة إلى خوض معارك الانتخابات النقابية

في النقابات المهنية "الأطباء – المهندسين – التجاريين".. كما دخل عدد منهم في المشروعات الاستثمارية وكونوا ثروات هائلة، مثل أمين الجماعة الموقع على بيان اتحاد الطلاب السابق، والذي أصبح بعد ذلك صاحب شركة مقاولات كبرى تنشر صوره في أجهزة الإعلام جنبا إلى جنب كبار الرموز الرأسمالية.

إضراب الحديد والصلب
يثير بركان الكراهية

في ٢ أغسطس ١٩٨٩.. انفجرت أحداث الحديد والصلب بحلوان.. وفوجئ الجميع بأنباء اعتصام عشرة آلاف عامل، تعاملت معهم قوات الشرطة بوحشية شديدة.. بدأت باقتحام المصنع في الخامسة من فجر الأربعاء ٣ أغسطس، ودخول المصفحات من أبواب الشركة الخمس، مع إطلاق النيران وقنابل الغازات المسيلة للدموع وغازات الأعصاب.. ثم اقتحمت القوات الخاصة عنابر الإنتاج واشتبكت مع العمال في معركة ضارية كانت نتيجتها مقتل العامل "عبد الحي السيد" وإصابة ستة عشر عاملا، بالإضافة إلى اعتقال ما يقرب من ستمائة عامل.. وكانت مطالب العمال بسيطة.. بسيطة.. ولكنها تكشف فساد الإدارة الذي أشارت إليه تحقيقات النيابة أيضا.

كان العمال يطالبون بعودة عضوي مجلس الإدارة المنتخبين، والإفراج عن أربعة من العمال سبق اعتقالهم،

وإقالة رئيس مجلس إدارة الشركة ونائبه، بالإضافة إلى حل اللجنة النقابية وإجراء انتخابات جديدة.

ولما لم تجد مطالبهم أي استجابة دخلوا في اعتصام يشف عن روح تضامنية عالية.. ومقدمات هذا الاعتصام بدأت عقب انتخاب أعضاء مجلس إدارة الشركة عن العمال وهم:

محمد مصطفى، نقابي.

هريدي عبد الرحمن، نقابي.

مصطفى عبد الهادي، أمين لجنة حزب العمل بالتبين، وعضو بجماعة الإخوان المسلمين.

وجمال نجيب، تيار إسلامي.

وبدأت مصادمات الأعضاء الجدد مع رئيس مجلس الإدارة منذ ديسمبر ١٩٨٨، عندما قدموا مذكرة تطالب بتطوير حوافز العمال.. ويبدو أن هريدي ومصطفى كانا قطبا المعارضة لرئيس مجلس الإدارة.. فصدر قرار من وزير الصناعة بتجميد عضويتهما، فلجأ الاثنان إلى القاعدة العمالية صاحبة الحق في انتخابهم، وصاروا لحمة واحدة في مواجهة الإدارة وخاضوا معا اعتصاما محدودا بقسم المحولات بالشركة.

وانحاز "مصطفى عبد الهادي"، و"جمال نجيب" إلى صف الإدارة في موقف معادي للعمال الذين انتخبوهما.

وفي مساء ٣١/ ٧ دعت الإدارة لاجتماع حرم منه العضوين مصطفى وهريدي، ووجهت الدعوة لمصطفى عبد الهاد العضو الثالث في اللجنة، ولأسباب مرضية لم يتمكن من المجيء ولم يحضر من العمال المنتخبين سوى جمال نجيب العضو الإسلامي.

لكن العمال رفضوا نتائج هذا الاجتماع وخاضوا تجربة الاعتصام الأول الذي حدث يوم وقفة عيد الأضحى.

وقرر مجلس الإدارة اتخاذ تدابير جديدة فعقد اجتماعا خارج المصنع بشارع عبد الخالق ثروت استدعى فيه جمال نجيب فقط، وللمرة الثانية رفض العمال نتائج هذا الاجتماع لعلمهم أنها قرارات تسويفية، وطالبوا بإقالة رئيس مجلس الإدارة واللجنة النقابية ودخلوا في اعتصامهم الثاني الذي فضته الشرطة بشراسة واضحة.

وأدلى جمال نجيب بتصريحات شديدة العداء إلى الصحف الحكومية عقب المذبحة الدامية لاقتحام المصنع. ومن

الأفضل أن نعرض هنا لكلام جمال نجيب نفسه وقد برزت صورة لحيته وزبيبته:

(والتقت الأخبار مع جمال نجيب محمد، عضو مجلس الإدارة المنتخب بشركة الحديد والصلب بحلوان في منزله بمساكن الخبراء بمدينة الصلب بالتبين [١٢] (ملحوظة كان العمال زملاؤه في هذا الوقت إما في السجن أو في المستشفى) – روى للأخبار قصة الاعتصامين الأول الذي حدث يوم وقفة عيد الأضحى والثاني الذي حدث ظهر الثلاثاء الماضي، والدور الذي قام به عضوا مجلس الإدارة المحرضان لإثارة الشغب بين العمال.

ويعترف جمال في هذا الحديث بأنه الوحيد الذي حضر اجتماع رئيس الهيئة في القاهرة بعيدا عن الشركة، مما يعني أنه في الوقت الذي كان يحظى بثقة الإدارة ويدعى لاجتماعين لا يرضى العمال بنتائجهما.. كان مرفوضا من العمال.

وقد وجهت الدعوة إلى العضو الإخواني الآخر (مصطفى عبد الهادي) ولكنه كان مريضا فلم يتمكن من الحضور، وإن كان لم يبخل بشهادته المعادية للعمال وللإضراب في التحقيق

الذي أجري معه وفي المحكمة أثناء نظر قضية الحديد والصلب. وهكذا أكدت تلك التجربة القصيرة نفس النتيجة القديمة التي تؤكد على عداء الإخوان المسلمون لفكرة توحد العمال وتضامنهم واستخدام أسلحتهم الجماعية في مواجهة الإدارة والحكومة والقوانين.

وربما قدم الإخوان بعض الأعمال الخدمية الصغيرة.. وربما يحاولون التزلف إلى العمال واجتذابهم.. لكن الأحداث الكبرى سرعان ما تكشف حقيقتهم. وليس أدل على ذلك من عضو الإخوان المسلمون الذي كان يدبر مع مجلس الإدارة وسائل فض الإضراب، ويردد إشاعات ضد هريدي ومصطفى بغرض إظهارهما في صورة سفاحين حينما ادعى أنهما (هددا بالتوجه إلى خزان تجميع الغازات الذي يغذي محطة كهرباء التبين وخطوط إنتاج المصنع وتفجيرها. ويحتوي هذا الخزان على غازات سامة وخانقة، مما كان سيؤدي إلى دمار منطقة الصف إلى المعادي، لولا أن أدرك المسئولون بالشركة نواياهما وقاموا بتحويل خط الخزان إلى مواسير فرعية تجنبا لحدوث الكارثة.) [١٤]

ولقد برأت النيابة العضوين وجميع العمال من تلك الإشاعات.. وأوضحت التحقيقات سخف مثل هذه الفكرة واستحالة تحقيقها، وخرج العمال من السجن خلال أقل من شهر.. ليسحبوا ثقتهم من العضو الملتحي.. المنتمي إلى الإخوان المسلمين.

أما صحافة الإخوان المسلمون فراحت تؤكد على مواقفها القديمة من رفض لأساليب الإضراب والاعتصام وغيرها، بل راحت تغازل الشرطة حتى يطمئن جانبها إلى "عقل" الإخوان وقلبهم المحب للنظام.

والمقال المنشور في مجلة لواء الإسلام ظل يدور حول:

- نفي أي صلة لهم بالأحداث العمالية.

- تحذير الأمة من خطورة التحركات العمالية والدعوة إلى تدارك الأمر (قبل أن يفوت الأوان). [١٥]

وقبل (انتقال ما حدث في حلوان إلى غير حلوان) [١٦]

- تحريض الشرطة ضد العمال ومغازلة هذا الدور القمعي الممقوت (إن دور الشرطة لكبير وعظيم، وحين يكون أداء الدور على الوجه المأمول والمطلوب تستطيع الشرطة

أن تحقق أكبر المساهمات في وحدة الصف وانتشار الأمن وتأكيد العدل والإنصاف). [١٧]

ويذكرني هذا بتعليق "مدحت محفوظ" نائب مجلس الشعب عن دائرة المحلة وعضو الإخوان المسلمون الذي وقف يقول عن العمال الذين نقلوا من مواقع عملهم وشتتهم الإدارة في مصانع أخرى:

(ثبت أن مجموعة الأسماء أخذت بشكل أكد فيه أن أجهزة الأمن لديها معلومات عن هذه الأسماء من مصادرها السرية. وأن عددا من هذه العناصر سبق ضبطه وبعضهم من العناصر الماركسية..) [١٨]

وأكد أنه (ينبغي أن يكون هناك حس سياسي لتدارك الموقف.. فأحداث الأمن المركزي ليست بعيدة عن الأذهان لذا فأنا أرجو الحكومة أن تتدارك الأمر فورا.) [١٩]

وفي تلك التصريحات الفريدة من نوعها التي يهاجم فيها نائب سكان منطقته بشكل مكشوف، ويستدعي الدولة والأمن عليهم، ولسان حاله يقول: الحمد أن تمكنت أجهزة الأمن من القضاء على العمال قبل أن يتمردوا..!!!

*   *   *

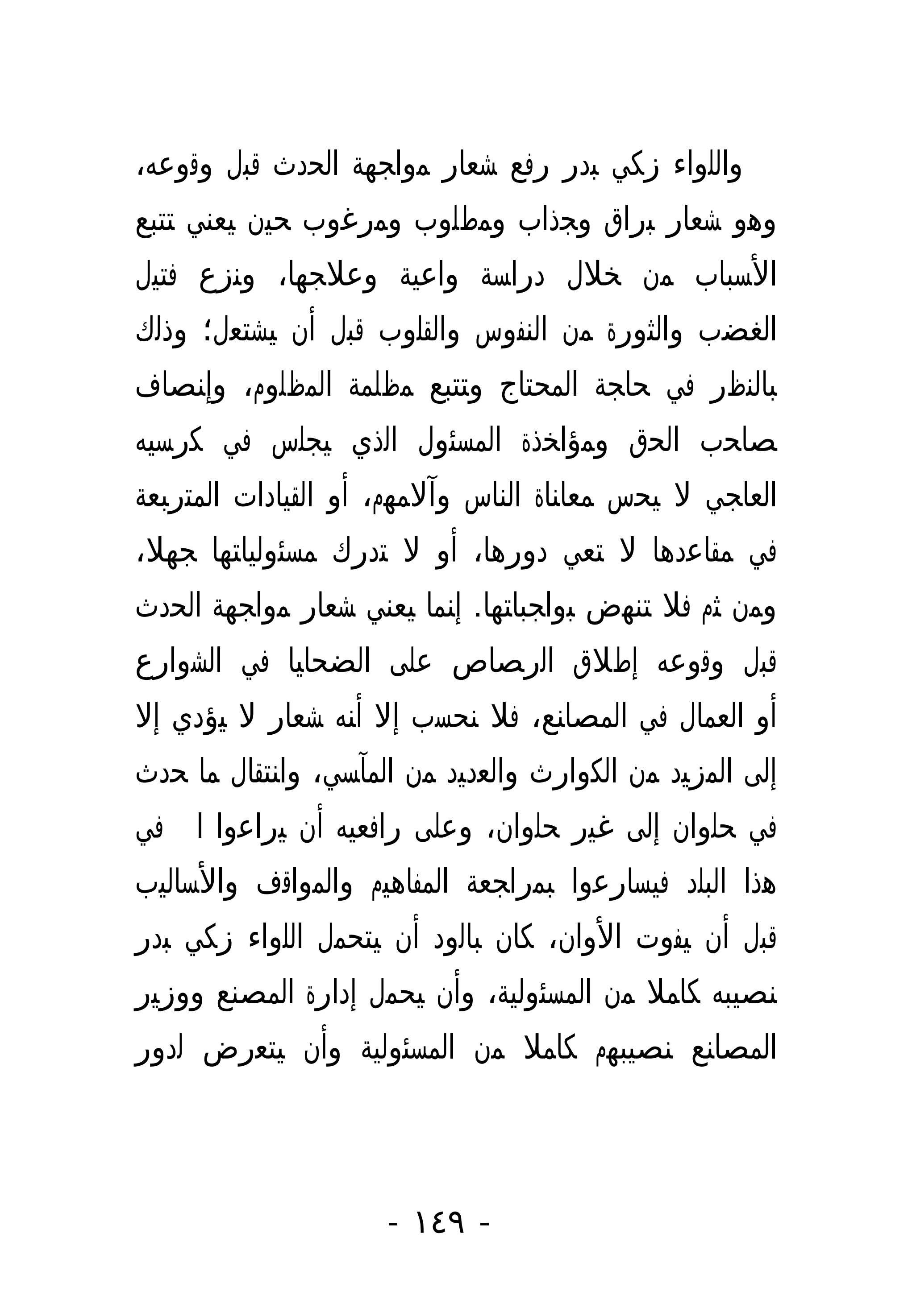
وهكذا نجد أحداثا كثيرة مرت.. قديمة وحديثة.. راكمت سجلا شديد السواد للإخوان المسلمون ضد الطبقة العاملة. سجلا يمتليء بحوادث كسر الإضرابات واستعداء السلطات ضد الحركة العمالية والتحالف مع الحكومات المختلفة.. كل ذلك من خلف ستار الدين والشعارات الإسلامية واللحية والهدوء المزيف..!!!

هامش أحداث الحديد والصلب

الإخوان المسلمون وأحداث الحديد والصلب:

بعد مقدمة تدعو إلى مواجهة الحقائق:

(نقول هذا بمناسبة مأساة الحديد والصلب في حلوان، وبعد أن اتضح أن أجهزة الأمن قد أخطأت الحسابات، وإن كانت ليست بالمرة الأولى التي تخطئ فيها أجهزة الأمن حساباتها. وأكبر دليل على خطأ أجهزة الأمن في العلاج والمواجهة وتقويم النتائج وتحمل المسئوليات أن اللواء زكي بدر، وزير الداخلية، بعد أن اتضحت كل الأبعاد ووضحت كل الخفايا راح يلقي اللوم على الآخرين ومن بينهم الإخوان المسلمون متهما إياهم بأنهم هم المحضرون والمثيرون، ليتهرب من تحمل النتائج ويهرب من مواجهة النتائج والمسئوليات كما يقول واقع الحال، رهيبة ومأساوية سواء كانت سفكا لدماء الأبرياء أو إزهاقا لأرواح المظلومين أو تنكيلا ويتما للنساء والأطفال، أو تخريبا للبيوت والمصانع والإنتاج واقتصاد الدولة.



واللواء زكي بدر رفع شعار مواجهة الحدث قبل وقوعه، وهو شعار براق وجذاب ومطلوب ومرغوب حين يعني تتبع الأسباب من خلال دراسة واعية وعلاجها، ونزع فتيل الغضب والثورة من النفوس والقلوب قبل أن يشتعل؛ وذلك بالنظر في حاجة المحتاج وتتبع مظلمة المظلوم، وإنصاف صاحب الحق ومؤاخذة المسئول الذي يجلس في كرسيه العاجي لا يحس معاناة الناس وآلامهم، أو القيادات المتربعة في مقاعدها لا تعي دورها، أو لا تدرك مسئولياتها جهلا، ومن ثم فلا تنهض بواجباتها. إنما يعني شعار مواجهة الحدث قبل وقوعه إطلاق الرصاص على الضحايا في الشوارع أو العمال في المصانع، فلا نحسب إلا أنه شعار لا يؤدي إلا إلى المزيد من الكوارث والعديد من المآسي، وانتقال ما حدث في حلوان إلى غير حلوان، وعلى رافعيه أن يراعوا ا   في هذا البلد فيسارعوا بمراجعة المفاهيم والمواقف والأساليب قبل أن يفوت الأوان، كان بالود أن يتحمل اللواء زكي بدر نصيبه كاملا من المسئولية، وأن يحمل إدارة المصنع ووزير المصانع نصيبهم كاملا من المسئولية وأن يتعرض لدور

قيادات عمالية تقاعست عن أداء دورها فيحملها نصيبها من المسئولية.

إن الإخوان المسلمون لا يعرفون الإثارة ولكن يغضبون غضبة المسلم للحق، ويحسون ألم المظلوم وقد عانوا الظلم سنوات وسنوات.. ويدركون تماما حق هذا البلد ومصالحه على الجميع.. ومن ثم فهم حريصون كل الحرص على مصالحه ومرافقه ومصانعه وجميع قطاعات شعبه ومنها بالطبع العمال والشرطة..)

وفي النهاية فقرة بالبنط الأكبر:

وإن دور الشرطة لكبير وعظيم.. وحين يكون أداء الدور على الوجه المأمول والمطلوب تستطيع الشرطة أن تحقق أكبر المساهمات في وحدة الصف.. وانتشار الأمن وتأكيد العدل والإنصاف.

أبو طارق

هزيمة جديدة للإخوان المسلمون

تلقى التيار الإسلامي والإخوان المسلمون على وجه الخصوص – بصفتهم محترفي انتخابات – هزيمة واضحة في انتخابات النقابات العمالية الأخيرة (أكتوبر ١٩٩١) وخسروا مواقع عمالية ظنوا أنهم قد نجحوا في اقتحامها الدورة الماضية.

بينما ظلت المواقع التي رفضت وجودهم على موقفها الرافض لهم.

وبرغم الظروف الاستثنائية التي جرت في ظلها الانتخابات الجديدة، حيث يسود الأوساط العمالية قلق شديد من تطبيق لائحة قانون الأعمال الجديد الذي يعطي الإدارة وأصحاب العمل الحق في فصل العامل مرة أخرى، وتحويل القطاع العام إلى شركات قابضة قطاع خاص، مع حرية الإدارة في تحديد الأجر والأرباح والحوافز... فباتت كل الحقوق العمالية المنتزعة من قبل مهددة بالانهيار، وشعر العمال إزاء هذا الخطر القادم أن في حبل المعارضة بعض النجاة، وانتخبوا عددا كبيرا من القيادات العمالية المعارضة..

إلا أنهم لم يعتبروا التيار الإسلامي والإخوان المسلمون ضمن هذه المعارضة التي يمكن أن تدافع عن حقوقهم وقت الخطر.

انتخب العمال ممثلي اليسار في كثير من المواقع العمالية في شبرا الخيمة وحلوان، كما انتخبوا قيادات ذات نزعات نقابية وخدمية صرفه، وأسقطوا بعض الرموز الانتهازية الصفراء لأول مرة في تاريخ تلك النقابات لظروف استثنائية أدت إلى التكتل العمالي خلف النقابيين الشرفاء، ومن بين أكثر من ١٦٧٥ لجنة نقابية، تتكون كل منها من إحدى عشر نقابيا لم يحصل التيار الإسلامي والإخوان على وجه الخصوص على شيء يذكر منها.. ربما حصلوا على بعض المواقع ولكنها من الأقلية بحيث لا تمثل إلا نسبة ضئيلة بالمقارنة مع النسبة التي حصل عليها النقابيون اليساريون.. ويكاد وجودها يتلاشى بالنسبة لما حصل عليه النقابيون التقليديون.

وظلت منطقتا شبرا الخيمة وحلوان أكبر المناطق العمالية وأكثرها تركيزا، دون وجود إخواني يذكر.

وفي كفر الدوار دارت معركة شرسة بين الإسلاميين والقيادات العمالية اليسارية انتهت بفوز قائمة اليسار.

أما في الإسكندرية فقد حصلوا على نسبة أعلى من المواقع الأخرى.

وإذا حاولنا تتبع الصورة بدقة أكبر فسنجد أن منطقة شبرا الخيمة بشركاتها العملاقة مثل وولتكس – شركة الكابلات – شركة سابي – شركة المقاولات المصرية – شركة المطاحن – شركة البطاريات – شركة الدلتا للصلب – شركة أنابيب البترول – شركة إسكو للغزل والنسيج – شركة النشاء والجلوكوز.. جميعها لم ينجح فيها التيار الإسلامي.

وعلى العكس من ذلك نجد العديد من العناصر اليسارية التي اكتسحت تلك الانتخابات بجوار العناصر النقابية الشريفة والصفراء.

* * *

وفي منطقة حلوان الصناعية سنجد مصنع الحديد والصلب (٢٢ ألف عامل) – مصنع نسيج حلوان (٢٠ ألف عامل) – مصنع الكوك والكيماويات (١٥ ألف عامل) – مصنع مطروقات الصلب (٤ آلاف عامل) - مصنع النصر

للمواسير (عشرة آلاف عامل) – شركة التركيبات والخدمات الصناعية – مصنع سيماف لصناعة عربات السكك الحديدية (٨ آلاف عامل) - مصنع معدات الغزل والنسيج بحلوان – مصنع إسمنت حلوان – مصنع اليابان المصرية – بالإضافة إلى مجموعة المصانع الحربية وتضم أكثر من خمسين ألف عامل، جميعها أيضا لم ينجح فيها التيار الإسلامي.. بينما نجد الكثير من العناصر اليسارية.

ولم يشذ عن تلك النتيجة سوى مصنع النصر للسيارات (١٥ ألف عامل)، فقد حصل الإسلاميون على خمسة مقاعد.. وهي أعلى نسبة استطاعوا تحقيقها في منطقة حلوان.

* * *

في الإسكندرية ادعت جريدة الشعب نجاح الإسلاميين في معظم المواقع، ولكن النظرة القريبة للأمور توضح أنه نجاح نسبي وليس اكتساح، حيث نجد العديد من المواقع العمالية التي لم تعط أصواتها للإسلاميين مثل شركة النشا والخميرة، والشرقية للأقطان، ومضارب الأرز، وشركة إيكا، وشركة الملح والصودا، والشركة التجارية للأخشاب.. على الرغم

من أن الإعلاميين حاولوا بث دعايتهم عن طريق المساجد وتربيط العلاقات وغيرها من الوسائل.

أما في شركات: الإسكندرية للحلويات فقد نجح بعضهم.

وفي مصر للكيماويات فاز اثنين من العناصر الإسلامية بمجلس الإدارة وخمسة في النقابة.

وفي شركة السيوف للغزل والنسيج فاز ثمانية من مرشحي التيار الإسلامي.

وفي شركة النحاس المصرية، لم ينجح منهم أحد في النقابة بينما فاز أربعة مهندسين إسلاميين في مجلس الإدارة.

وفي قطاع البترول فاز العديد من الإسلاميين.. ومن الملاحظ أن للإخوان المسلمون وجود قديم في النقابات البترولية.. وربما نذكر محاولات الإخوان لترسيخ نفوذهم في نقابات عمال البترول وأنهم كانوا في عام (١٩٥٠/ ١٩٥١) يحرضون نقابات عمال البترول على مقاطعة اللجنة التحضيرية للاتحاد العام ويمنعون شبابهم من المشاركة الوطنية في معركة القنال.) [٢٠]

ويرجع البعض سبب اتساع نفوذ الإخوان المسلمون في النقابات البترولية إلى كونها أقرب في طبيعتها إلى نقابات

المهنيين، حيث تجمع عددا كبيرا من شركات الخدمات البترولية، وأن العاملين فيها أقرب إلى الطابع المهني منهم إلى الطابع العمالي.

ومن المؤكد تاريخيا أن تلك النقابات البترولية اشتركت في أعمال رجعية منها محاربة فكرة الاتحاد العام التي كانت بمثابة حلم عزيز المنال لكل فصائل الطبقة العاملة المصرية.

والنتيجة الأخيرة للانتخابات العمالية في الإسكندرية هي إحراز الإسلاميين بعض النجاح هناك، وإن لم يكتسحوا كما حاولت الدعاية الإسلامية أن تصور الأمر..

* * *

وفي المحافظات الأخرى نقدم بعض المواقع العمالية التي توافرت أخبارها عن طريق متابعة المعركة الانتخابية من خلال الصحف المختلفة لتلك الفترة.. وخصوصا صحف المعارضة وصحيفة الشعب ذات الرطانة الإسلامية.

فنجد في محافظة بني سويف نجاح بعض الإسلاميين في شركة الغزل، كما نجح بعض النقابيين التابعين تاريخيا لحزب العمل وفي محاجر الحديد بالمنيا لم ينجح منهم أحد، وفي شركة الإسمنت بأسيوط لم ينجح منهم أحد، ونفس

الشيء في مصنع السكر بقوص وفي شركة سكر جرجا بسوهاج.

أما في مجمع الألومونيوم بنجع حمادي فنجد الشيخ يوسف حافظ في مجلس الإدارة.

وهكذا نجد وجودا ضعيفا بل يكاد يكون هامشيا للإسلاميين في مصانع الصعيد، على الرغم من ضجيج الجماعات الإسلامية في تلك المحافظات وانتشارهم بجامعاتهم ومدنها، إلا أن تأثير ذلك الضجيج ضعيف جدا على الطبقة العاملة ولسان حالها يكاد يرفض الاندراج تحت رايتهم.

* * *

وفي محافظات الوجه البحري الأخرى فنجد بعض التجارب المرة التي أثرت على وجود الجماعات الإسلامية في المصانع التي جربتها خلال الدورة الانتخابية الماضية.

ففي محافظة الدقهلية – في شركة النصر للأسمدة والصناعات الكيماوية بطلخا – كون الإسلاميون عبر بعض التحالفات قائمة، أخذت اسم القائمة الإسلامية خلال الدورة النقابية الماضية، ونجحت تلك القائمة، لكنها لم تهتم بمصالح

العمال على الإطلاق وتورطت في بعض الفضائح مثل فضيحة معرض السلع المعمرة والموتوسيكلات حيث اتفقت النقابة مع بعض الجهات على إقامة معرض بالشركة، وبيعها بالأجل وخصم القيمة المطلوبة من مرتب العمال، وحدثت تجاوزات كثيرة من أعضاء النقابة طالت ذممهم المالية.. فضلا عن الأعباء الجسيمة التي حملوها للعمال بطريقة البيع بالأجل وتسليم أجور العمال كاملة لشهور طويلة لهؤلاء التجار وتمكينهم من امتصاص دماء العمال وأسرهم. وكانت نتيجة تلك التجربة القاسية أن رفض العمال كل الرموز الإسلامية في الدورة الانتخابية التالية (أكتوبر ١٩٩١) وأعطوا أصواتهم لمرشحي اليسار.

ومن الجدير بالذكر أن نشاط النقابيين الإسلاميين ينحصر في تنظيم رحلات العمرة والحج، وإقامة معارض مختلفة، وفي أحسن الحالات عمل بعض الخدمات في مجال المواصلات وحالات دفن الموتى أو ما يسمى بدلات المرض والوفاة، أما في الأحداث الكبرى.. في المواجهة مع الإدارة.. في الصراع مع النقابة العامة والحكومة والشرطة والقوانين الجائرة.. لا تجد القاعدة العمالية أحدا من الإسلاميين

بجوارها.. يتلاشون كالبخار ويطيرون إلى الجهة الأخرى.. جهة الإدارة وأصحاب الأعمال.

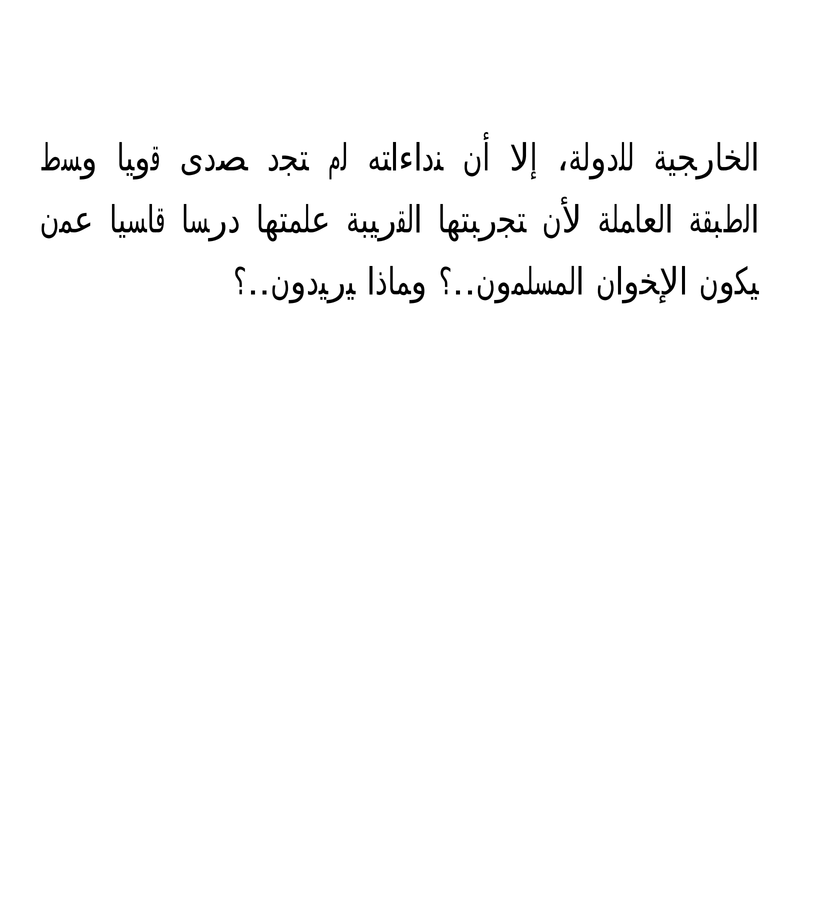
* * *

إن الصورة السابقة هي متابعة لما توفر من معلومات عن الانتخابات النقابية في جريدة الشعب ذات العمامة الإخوانية والتي كانت تبالغ في قوى التيار الإسلامي قبل وأثناء الانتخابات.. ثم جاءت النتائج لتخذلها.

وقد حاولتُ مقارنة معلومات جريدة الشعب ببعض الجرائد الأخرى، فكانت تلك الصورة التقريبية التي توضح مدى هزال التواجد الإخواني في الأوساط العمالية.. بل وتراجع هذا الوجود في بعض المواقع التي جربتهم، وهناك مواقع أخرى كثيرة لم تكتب عنها الجريدة لأنه لم يكن لهم وجود فيها على الإطلاق.. وبرغم النداءات المتكررة التي وجهتها الجريدة إلى العمال:

"يا عمال مصر خذوا الكتاب بقوة".

"يا عمال مصر غيروا ما بأنفسكم"، وغيرها من العناوين الطنانة والتي حاول فيها "أمين العمال بالحزب" أن يحشد كل الرطانة الإسلامية ويسب عموم الأوضاع والسياسات



الخارجية للدولة، إلا أن نداءاته لم تجد صدى قويا وسط الطبقة العاملة لأن تجربتها القريبة علمتها درسا قاسيا عمن يكون الإخوان المسلمون..؟ وماذا يريدون..؟

هوامش الفصل الثالث

١- الاعتصام: العدد السادس، ذو الحجة ١٣٩٤ هـ/ يناير ١٩٧٥، السنة السابعة والثلاثون، ص ٢٨.

٢- نفس المصدر.

٣- الاعتصام: العدد الثاني، شوال ١٣٩٥ هـ أكتوبر ١٩٧٥، السنة ٣٨.

٤- الاعتصام: العدد العاشر، السنة الثانية والأربعون، شوال ١٣٩٥ هـ سبتمبر ١٩٧٩.

٥- الدعوة: العدد ١٠١٩، السنة...، ٢٦ ديسمبر ١٩٧٧، ص ١٤.

٦- الدعوة: نفس المصدر.

٧- الاعتصام: فبراير ١٩٧٧، العدد السادس، السنة الأربعون. انظر أيضا: دروس ١٨ و١٩ يناير نفس العدد.

٨- الاعتصام: العدد السابع، ربيع أول ١٣٩٧ هـ مارس ١٩٧٧، السنة الأربعون.

٩- الدعوة: فبراير ٧٧، بعد الأحداث مباشرة.

١٠- الدعوة: العدد التاسع والأربعون، السنة التاسعة والعشرون، ٤٢٣، يونيو ١٩٨٠ ص ٦٦.

١١- حسن البنا: مجلة الدعوة، السنة الأربعون، ربيع الأول ١٣٩٧ هـ فبراير ٧٧، العدد التاسع، السنة السادسة والعشرون، ٣٨٣.

١٢- الدعوة: فبراير ١٩٧٧، ص ٥١، الجماعات الإسلامية تحذر.

١٣- الأخبار: ٤ أغسطس ١٩٨٩، ص ١.

١٤- الأخبار: ٤ أغسطس ١٩٨٩، ص ٧.

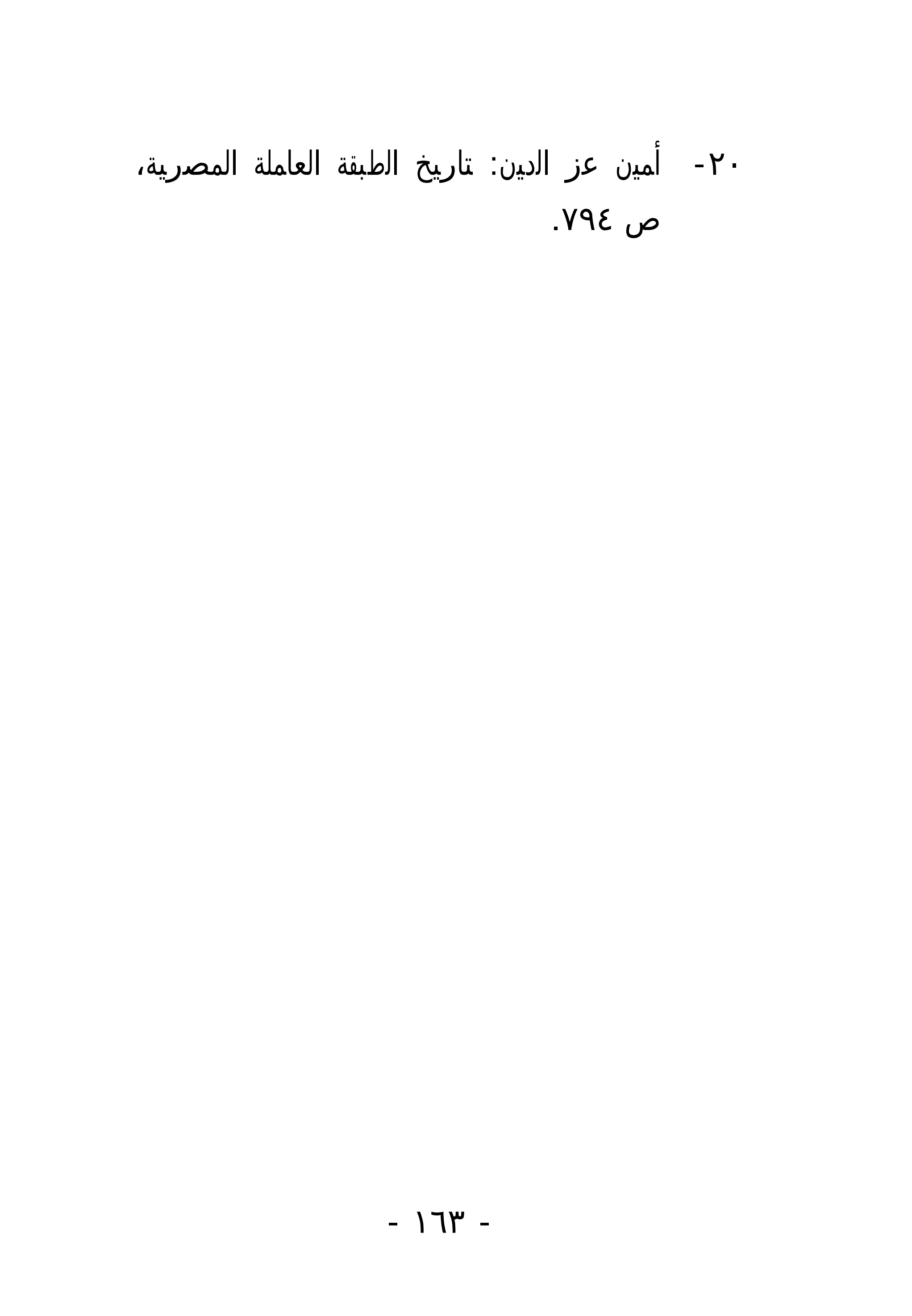
١٥- لواء الإسلام: العدد السادس، السنة الرابعة والأربعون، غرة صفر ١٤١٠ هـ/ ١ سبتمبر ١٩٨٩. الإخوان المسلمون وأحداث الحديد والصلب – الصفحة الأخيرة.

١٦- لواء الإسلام، المصدر السابق.

١٧- لواء الإسلام، المصدر السابق.

١٨- لواء الإسلام، المصدر السابق.

١٩- لواء الإسلام، المصدر السابق.



٢٠- أمين عز الدين: تاريخ الطبقة العاملة المصرية، ص ٧٩٤.

الفصل الرابع

دولة الشدة والعنف

تشريعات الإخوان
والموقف من الحقوق العمالية

السخرة كم هي مقيتة.. وكم تستدعي من الذكريات الحزينة لماضي العمال الذين كانوا يعملون تحت وطأتها في العصور السابقة:

العبودية.. القيود الممتدة إلى كل تفاصيل الحياة.. البؤس – الفاقة.. المرض.. الموت المبكر.. هؤلاء هم رفاق السخرة وأحباؤها.

لقد ارتبطت السخرة دائما بالدول الاستبدادية والكلية الجبروت، وكم من الدم الذي أريق فيها، وتكدس في خزائن الملاك مالا.. وما تعلمته من تاريخها الطويل هو التنكر في أزياء مختلفة، وهي لا تستطيع الظهور على المسرح مرة أخرى إلا وسط حالة من القهر الشديد لأية مقاومة، وخضوع الجميع لهذا العاتي الجبار المسيطر على شئون البلاد، والفارض بحد السيف أفكاره الشمولية.. لا حقوق سوى حقه.. لا حريات سوى حريته..

والسخرة هنا ترتدي زيا إسلاميا..

(إن دولة الإسلام لها أن تجبر الناس على أي عمل كان).[1]

كما يقول ابن تيمية ويضيف:

(إذا كانت الأمة بحاجة إليه وامتنع الناس عن القيام به).[2]

ومن المعروف أن الناس لا تمتنع عن أداء عمل إلا إذا كان صعب الشروط ولا طاقة لهم على القيام به، أو أن يكون ضئيل الأجر، والتاريخ مليء بقصص العمال الذين سيقوا قسرا تحت سطوة الكرباج أو البندقية، وسقطوا بين المرض والموت، ولو ترك هؤلاء الناس لحريتهم لما ذهبوا إلى الموت.. ولنا أن نتخيل كل أنواع العمل الخطر والمميت وغير الصحي. الذي ستجبر الدولة الإسلامية عمالها على القيام به.. فالعامل عندهم مجرد أداة لإنجاز أي شيء وحياته لا تهم طالما لا تكلف جيوبهم شيئا..!!

والعمال لا يملكون فرارا من تلك الحالة القهرية.. لا يملكون فرارا من هذا الكابوس الضخم الذي يجثم على المجتمع ويتحكم فيه.

وربما يتساءل البعض.. وهل ينعم العمال بالحرية الآن..؟

بالطبع لا.. إنها غير متحققة في المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على السواء.. وضغط الحاجة هو المحدد الأعظم لمكان الإنسان في المجتمع، وعلى الرغم من كل الظروف الصعبة فإن هناك هامش ضئيل من الحرية يمكن الإنسان من اختيار عمل ومن رفض آخر إذا لم يستطع تحمل مصاعبه.. أما أن يحرم من هذا الهامش أيضا ويفرض عليه كل شيء بمقتضى القانون العام وبصرامة جميع أجهزة القمع.. فهذه هي السخرة بعينها، والدعوة إليها مرة أخرى هي دعوة لجر الطبقة العاملة دهرا طويلا إلى الخلف وحرمانها من أوليات حقوقها ولتبرير هذا المنطق الفج فإنهم يناقشون الأمر وكأنه من الطبيعي أن يظل العمال يحملون عبء الإنتاج عن المجتمع كله.. وكأنه قدر عليهم أن يكون الفقر من نصيبهم مدى الحياة، فيقولون:

(لماذا يحرم ا البعض ويعطي البعض مادامت الخزائن ملأى والأرزاق لا ينضب لها معين؟

والجواب على هذا افتراض معقول هو أن ا تعالى لو منح الخلق أمنياتهم وساوى بين أعطياتهم وجعلهم في منزلة واحدة، فالنتيجة والجواب أنه لن يوجد في الكون زارع

ولا صانع لأني أنا غني وأنت غني وغيرك غني، فلْتَبر هذه الأرض ولتتعطل المناجم ولتتقوض هذه الحضارة، ولن يكون من نتاج العقول أثير ولا مذياع ولا طائرة ولا سابحة وليخرب هذا الكون وليمت الناس جوعا وليكن بعد ذلك ما يكون). [٣]

ومنطق الإخوان في تفسير سبب التفاوت بين الناس في الثروة والمكانة الاجتماعية هو تفسير كاذب ومفرط في السذاجة أيضا، فبالإضافة إلى أن الثروة لا تهبط من السماء، بل هي نتاج عمل بشري احتكره واستغله وراكمه بشر آخرون.. فإن الإخوان ينحازون إلى جانب الصفوة المالكة إلى الحد الذي يدفع بمنظريهم إلى الإسراف في التأكيد على هذا المبدأ:

(إن ا جل شأنه فضل بعض الناس على بعض في الرزق وجعل بعضهم خدما ومماليك للبعض الآخر.) [٤]

ويقول أبو الأعلى المودودي:

(أصبح لزاما أن يكون في الناس مخدومون وخدم ومستأجرون وأُجراء فيتسع بذلك مجال لكسب العيش بالخدمة والأجرة كما يتسع بالزراعة والصناعة والتجارة). [٥]

ومع كثرة حديث الإخوان عن العمال وضرورة قيامهم بمهام العمل وحمل عبء الإنتاج، إلا أنهم لا يعترفون بوجود الطبقة العاملة كجسد واحد ضخم يعيش نفس الظروف ويقوم بأداء نفس الدور الاجتماعي، في مقابل طبقات أخرى تعيش على ناتج عمله.. فالإخوان يريدون نفي وجود الطبقة العاملة لنفي حقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية والاقتصادية وإلغاء التاريخ الطويل من النضال العمالي وما ترتب عليه من مكتسبات.

والحديث عن العامل الذي يستأجره الرأسمالي بما يشاء من أجر ويستغني عنه وقتما يشاء يهدف إلى زرع روح التفرق والخوف في صفوف العمال، لتحل محل روح التضامن والتكاتف التي تستدعيها ظروف طبقة مظلومة ومضطهدة في المجتمع..

ولكن هل يستطيع الإخوان عبر دعايتهم وأفكارهم النظرية نفي وجود الطبقة العاملة فعلا..؟

إن الدعاية لا تغير من حقيقة الوضع الاجتماعي.. ربما تموهه. أو تضفي عليه سحابة رمادية تهدف إلى تعتيم الرؤية.

الإخوان بفعل القوة والميليشيات المسلحة والقوانين المتعسفة واليفط الإسلامية ونشر روح الخوف والرهبة يستطيعون ردع المجتمع وتسكينه.. ولكنهم لا يستطيعون نفي طبقاته مهما كانت الرطانة والدعاية العالية الصوت التي لا هم لها إلا التأكيد على حق الملكية واكتناز الثروة وسيادة الأغنياء على الفقراء، ولذلك يعلن "حسن البنا" في غير موضع قاعدته النظرية للحفاظ على مصالح الأغنياء والملاك.

(ليس بيننا وبينهم سوى أداء الزكاة.) [٦]

نعم.. كل الحقوق والحريات لأصحاب الأملاك والمستثمرين والأغنياء في فكر الإخوان المسلمين.. أما العمال فليس لهم حتى حق النظر أو المقارنة أو التفكير في صعوبة الوضع القائم ومدى الظلم المترتب عليه:

(العامل الذي رباه الإسلام لا يحسد صاحب العمل على ما أتاه ا من ثروة ومال، ويرعى مال صاحب العمل لأنه مسئول عن هذا المال، ويحافظ على أدوات صاحب العمل.) [٧]

فالإخوان حزب يتحدث باسم الأغلبية دائما بينما تعمل آلياته لصالح الأقلية المجودة بالفعل.

حزب يحشد الجمهور الواسع الناقم على الفقر تحت مظلة وعوده الواسعة.

ويمهد بهم الطريق لانطلاق تلك الصفوة المالكة.

نعم.. لن تغتني كل الجماهير التي صدقت دعاية الإخوان المسلمون وسارت خلفهم بل سيجدون أنفسهم مسخرين لخدمة ما يسمى بالثروة الإسلامية العامة، التي ستذهب بعد ذلك إلى الخزائن الخاصة.

و"سيد قطب" حينما ينتقد في كتاب "الدالة الاجتماعية في الإسلام" تضخم الثروات إلى حد رهيب، وإغراق البعض في الملذات والشهوات الداعرة. فإنه لا ينتقد الرأسمالية، بل ينتقد ابتذالها ومجونها.. يعتبرها رأسمالية غير رشيدة، لأنها تغرق في السلوك الاستهلاكي المبتذل وتساعد على دفع الأمراض الاجتماعية وتحفز الفقراء ضد وجود الملكية من الأساس.

إنه يوضح لهم أن الترف المفرط يؤدي إلى الركود الاقتصادي العام.. ويزيد من حدة التضخم، فيصل بذلك الإنتاج الرأسمالي إلى نقطة صعبة لا يستطيع فيها تطوير

نفسه.. ولذلك فهو يدعو تلك الرأسمالية المتهورة الرازحة في "المتاع الشهوي الداعر" إلى بعض التعقل.. ويدلها على طريق نجاتها عن طريق تكوين الشركات الكبرى وتشغيل المزيد من الأيدي العاملة، وليس إنفاق الثروة في النزوات العابرة:

(فإذا كنا حريصين على أن نخلق مشروعات ضخمة تحقيقا لما يسمى "الإنتاج الكبير" ففي وسعنا أن نسن تشريعات لبعض أنواع الصناعات الضخمة نختم فيها ألا يرخص بإقامة مشروع منها إلا برأس مال حده الأدنى كذا.. عندئذ تتجمع رؤوس الأموال بالمساهمة وتخضع لحساب الربح والخسارة، فلا تبقى حاجة إلى بنوك غير بنوك الإصدار.

فإذا ما شاءت البنوك الأخرى أن تربح فعليها أن تساهم بأموالها وأموال المودعين – بعلمهم ورضاهم – في مشروعات استغلالية تخضع للربح والخسارة.

ولن يمنع هذا تدفق رؤوس الأموال الأهلية والأجنبية؛ لأن معظم رؤوس الأموال لا يودع في البنوك إنما يستغل في المشروعات.) [٨]

وما جوهر الفكرة السابقة سوى فكرة الشركات الاحتكارية الكبرى التي تقوم في الغرب الآن.. حيث تتجمع رؤوس الأموال لخدمة الإنتاج الكبير.. مما يدعم الرأسمالية ويوسع الفوارق الطبقية بما لا يقاس.

وسيد قطب لا يرى غضاضة في توظيف رأس المال الأهلي جنبا إلى جنب مع رأس المال الأجنبي، ويعتقد أن مشروعاته الكبرى سوف تجتذب تلك الأموال وتدمجها في الآلة الكبيرة الدائرة التي يحلم بتكوينها.. على عكس ما يشاع عن عداء الإخوان المسلمون للغرب، ويبدو أنهم يعادون الأفكار التنويرية والثورية فيه فقط.. أما رؤوس الأموال فهم يرحبون بها ويفكرون في وسائل اجتذابها أو الذهاب إليها كلما أمكن.

وسيد قطب يصنع خليطا نظريا قوامه قواعد الإنتاج الرأسمالي في إطار أشدِ ظروفِ عملٍ ممكنة، وذلك بشد المجتمع كله في ملزمة من حديد يمسك الحاكم الفرد بأطرافها عن طريق التفويض المطلق بمنحه سلاحين هامين يسميان مبدأ (سد الذرائع) ومبدأ (المصالح المرسلة) التي يحق للحاكم عن طريقها:

إلغاء القوانين وسن قوانين أخرى، ويحق له بهما القضاء على الحقوق بما في ذلك النصاب الهزيل للزكاة (٢,٥ ٪) الذي يبنون دفاعهم عن الفقراء بناء عليه في مواضع الحديث إلى الفقراء، بينما هم في حقيقة الأمر ينظرون إلى الزكاة من زاوية متعالية تؤمن في أعماقها بالحديث الذي يقول:

(إنما هي أوساخ الناس وأنها لا تحل لمحمد ولآل محمد.) [٩]

وبرغم هذا التعالي المصبوغ بروح الشفقة الكريهة والمؤيدة لكل أوضاع البؤس والفاقة واستمرار مد أيدي الفقراء إلى السادة الأغنياء.. فإن نزعة رأسمالية حديثة تغازل أحلام زيادة الثروة والملكية لديهم، تجعل أصحاب شعار العدالة الاجتماعية يفكرون في طرق جديدة تَحرم الفقراء حتى من "أوساخ الناس" أو النصاب الهزيل للزكاة، وتدعو إلى استخدام سلطة الحاكم الفرد لتجميع الزكاة وتركيزها واستخدامها في إنشاء مصانع ومعامل، كما تستخدم سلطة الحاكم الفرد في جمع الفقراء البائسين وتشغيلهم في تلك المصانع بالشروط التي تلاؤمه، فيحق للحاكم ووكلائه تحديد أجورهم، وفي بعض الأحيان يحق له منع الأجر من

المنيع بحجة أنه (يحل للسلطان أن يجعل أجر العامل في المصنع والحقل نسبة معينة من النتاج والمحصول حدها الأدنى كفاية المأكل والمشرب والملبس والدواء والعلاج في الحدود المعقولة.) [١٠]

وهنا نجد دعوة خطيرة سبقتهم إليها تدابير الرأسمالية الغربية في أوقات الضنك الشديد، وهي دعوة العمل المكثف مقابل الحد الأدنى من القوت لضمان استمرار الحياة وإعادة إنتاج قوة العمل من جديد.. مرة أخرى يعود قانون "جون جراي" في ثوب إسلامي ولحية ومسبحة، مرة أخرى تقفز الروح إلى اقتراحه الخاص ببونات العمل، وفيها يتلقى العامل بعد قيامه بفترة عمل قاسية إيصالا بأسبوع عمل أو يوم عمل "على حسب المدة التي قضاها" وبعد ذلك يقوم بصرف هذا "البون" للحصول على ما يعادله من السلع الأساسية المحددة له سلفا من شباك الرأسمالي وحلفائه.

فيتجسد بذلك معنى عبودية العمل في أقصى صورها حينما يحدد الحاكم نوع الطعام الذي يأكله العامل (الفول مثلا وليس العدس)، ونوع الملابس التي يرتديها (الكتان مثلا وليس القطن)، ونوع الحياة برمتها.. ويتحكم في أدق تفاصيل

حياته اليومية والمعيشية. ومن البديهي أن هناك حدود في المجتمع الرأسمالي لمعيشة العمال، وأن الملاك في التحليل الآخر هم الذين يضعون الحدود العامة لوضع الطبقات ونمط استهلاك كل منها حسب قاعدة التحكم في الأجور والتحكم في الأسعار، ومع ذلك يبقى هناك هامش ضئيل من الحرية يسمح بالاختيار بين (العدس والفول) وربما أنواع أخرى.. هذا الهامش يقضي عليه، ويدمر تماما مع اقتراحات بونات العمل ونسبة الإنتاج. ولنتخيل عامل يتلقى أجره من عين صناعته حسب نسبة معينة يحددها السلطان، أو ما يقابل تلك النسبة نقدا دون أن يكون من حق هذا العامل الاعتراض أو المقاومة..!!

وعبر تلك الآلية الصارمة يتفق فكر الإخوان المسلمون مع أسس المجتمع الطبقي الحديث في وجود الرأسمالية من جهة والعمال من جهة أخرى مع إضفاء مسحة قاتمة تجسد عبودية العمل.

إنهم يصنعون خليطهم الفكري الخاص بالمحافظة على جوهر علاقات الملكية الحديثة مع إضافة شروط العصور الوسطى الصارمة التي تحكم العلاقة بين الملاك والعمال.

ولتمويه وتغطية جوهر تلك العلاقة الاستغلالية يلجأ الإخوان إلى حيلة ماكرة، فهم يتحدثون دائما في أبياتهم عن العمال بوصفهم أفرادا متفرقين. مجرد إجراء يأتي بهم صاحب العمل ويستغنى عنهم كيفما شاء، وفي هذه الحدود يتحدثون عن حسن معاملة الأجير التي تساوي حسن معاملة الخدم بإنهاكهم بالعمل مقابل الأجر:

(أصبح لزاما أن يكون في الناس مخدومون وخدم ومستأجرون وأُجراء، فيتسع بذلك مجال آخر لكسب العيش بالخدمة والأجرة كما يتسع بالزراعة والصناعة والتجارة.) [١١]

وفي مقابل العامل.. الفرد.. الأجير.. لا حديث عن حقوق جماعية للعمال، أو دور اجتماعي وسياسي للطبقة العاملة برمتها.. ومن هنا يهاجم الإخوان كل الأشكال التنظيمية التي تجمع الطبقة العاملة وتنظمها وتهيئ لها فرصة التكتل في مواجهة أعدائها. ومنها هجومهم المتفرق على النقابات واتحاد العمال والروابط مع الاتحادات العمالية.

ففي معرض مناقشتهم لموضوع النقابات.. يميلون في الأغلب الأعم إلى تفريغها من محتواها بحيث تظل مجرد

أشكال جوفاء.. ثم يناقشون فكرة تكوين منظمات بديلة تضفي أي إمكانية نضالية لدى العمال.

(لا نستطيع أن نجد في المجتمع الإسلامي الأول تنظيما نقابيا كتنظيم العصر الحديث لأن صاحب العمل كان يقوم بواجبه تجاه العامل وزيادة، وكان العامل يؤدي عمله بإتقان وإخلاص.) [١٢]

ومع تلك البكائية على نظم العمل في العصور السحيقة التي يظلل الشك ما جاء فيها من ادعاءات كون صاحب العمل يقوم بواجبه وزيادة تجاه العامل دون أن يكون هناك سند تاريخي يثبت تلك الادعاءات، فإن موقفهم من النقابات الحديثة لا يقل غرابة حينما يقولون:

(الإسلام لا يعارض قيام تنظيم نقابي شرط أن لا تتنافى مقررات التنظيم النقابي وتعاليم الإسلام.) [١٣]

وشرط تعاليم الإسلام الذي يذكرونه، هو شرط فضفاض جدا ويخضع لمزاج من يسمون أنفسهم بمفسري الإسلام وأولي الأمر، هو إذن قيد غير عمالي يتحكم فيه أعداء العمال.

والنقابات العمالية الحالية لا قيد فيها على المسيحيين من العمال، أما تصور الإخوان المسلمون فيؤكد على مبدأ (لا ولاية لغير مسلم على المسلم) وبمقتضى ذلك لن يسمحوا بصعود قائد عمالي مسيحي إلى قيادة العمل النقابي بحجة أنه غير مسلم، وربما يطردون القادة المسيحيين من النقابات أو يضعونهم في مكانة متدنية.. وبذلك يصيبون هدفين بسهم واحد: التخلص من المسيحيين، والتخلص من المعارضين أيضا إذا تصادف وجود قائد عمالي مسيحي معارض.. ومن يدري ربما لن يسمحوا بوجود المسيحيين في أسفل القاعدة النقابية حتى لا يجمعهم أي شكل من أشكال التساوي مع رفاقهم العمال المسلمين.

وبهذه الطريقة سيدمر الإخوان الجسم الحالي للنقابات.. ثم يشرعون في بناء نقابات بديلة يسمونها (نقابات المنتجين) كبديل للنقابات العمالية، وهي نقابات تضم أصحاب الأعمال والموظفين والمهنيين والعمال.. فيجمعون المتناقضات في سلة واحدة.. وبذلك يفرغون النقابات العمالية من محتواها الفكري والاجتماعي ويشلون قدرات العمال النضالية.. إن النقابة ليست هدفا بل هي تكتل جماعة متجانسة المصالح

لتضغط على جماعة المصالح المضادة لها.. وبذلك تحقق وظيفتها في الدفاع عن أعضائها وحمايتهم وانتزاع حقوقهم.. أما أن تجمع النقابة صاحب العمل والإداري والعامل في جسم واحد.. فعن أي مصالح تدافع مثل هذه النقابة.. عن مصلحة صاحب العمل.. أم عن مصلحة الإداري. أم عن مصلحة العامل، وهي متناقضات لا يمكن الجمع بينها بهذا التصرف الشكلي.. وبالطبع ستذهب كل الإمكانيات إلى الأقوى.. والرأسمالية مدربة منذ نعومة أظفارها على أعمال الحيل والمؤامرات وغيرها من الأساليب.

إن المستفيد الوحيد من الشعار الذي يرفعه الإخوان المسلمون (لا تمييز بين المهنيين والعمال، ولا فوارق طبقية بين منظم أو منتج.) [١٤]

هم الرأسماليون بكل ما لديهم من قوى مادية وحنكة ودراية بفنون الغش.. فأي كارثة يمكن أن تحل على العمال من جراء التسوية الشكلية بين غير المتساويين.. وأي إهدار لكل التاريخ السابق.. وكل الحقوق التي حصلوا عليها بالدم، والتي يمكن أن يحصلوا عليها إذا واصلوا النضال ككتلة

عمالية تعي حقيقة دورها في سير عملية الإنتاج، وفي مجمل الوضع الاجتماعي.

وإذا كان هذا هو موقفهم من النقابات.. فما رأيهم في الاتحاد العام للعمال.. وهو نتيجة للبناء النقابي الواسع..؟

يذكر اتحاد العمال الحالي للإخوان المسلمون أنهم كانوا ضد قيامه، وأنهم اتفقوا مع ضباط ثورة يوليو في كل محاولات عرقلة قيامه.. حتى اضطر هؤلاء الضباط تحت الضغط العمالي إلى تأسيسه عام ١٩٥٧.

والآن يطالب الإخوان المسلمون بقطع صلة الاتحاد المصري للعمال بمنظمات العمل الدولية واتحاد النقابات العالمي بحجة أنها منظمات يهودية ولا يصح أن يكون للعمال المصريين صلة بها.

(فالأيديولوجية المسيطرة على الاتحادات العمالية الدولية واحدة وبصمات اليهودية واضحة الأثر.) [١٥]

وكبديل لاتحاد العمال العالمي تتبنى مجلة الدعوة فكرة إنشاء "اتحاد عالمي للعمال المسلمين. أو الاتحاد الإسلامي الدولي للعمال."

وتقترح لسرعة تنفيذ هذا الاقتراح توسيع الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب ليكون هو البديل عن الاتحاد العالمي.

وكما يقولون بدأت مناقشة هذه القضية باتصال بين عموم عمال باكستان وبين الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب في جنيف في يونيه ١٩٧٦ أثناء انعقاد مؤتمر العمل الدولي.

ووجهت مجلة الدعوة الناطق الرسمي باسم الإخوان المسلمون – نداء إلى الكتاب الإسلاميين للإفتاء في هذا الموضوع، لكن يبدو أن الكتاب الإسلاميين كانوا يفتقدون شهية الإفتاء فجاءت الأعداد التالية للمجلة: خلوا من مناقشة هذا الموضوع.

ومن أجل مسح ذاكرة النضال العمالي الجماعي، وقطع كل صلة له مع الإرث الثوري.. نجدهم يسخرون في صحفهم من فكرة الاحتفال بيوم عيد العمال ويطالبون بعدم الاحتفال به بحجة أنه عيد أجنبي، ولا يحل للمسلمين الاحتفال به وكأنه لا تاريخ مشترك.. لا عذاب مشترك.. ولا حقوق مشتركة أيضا بين العمال المصريين وعمال العالم.. وربما يهدفون من طرف خفي إلى محو تلك الحقوق التي حصل عليها العمال المصريون بمقتضى ضغط الحركة العمالية

العالمية.. وهذا هو بيت القصيد إنها سلسلة لا تنتهي من ضياع الحقوق تطول كل شيء حتى مستوى الأجور وعدد ساعات العمل وكمية الجهد المبذول.

فمعنى أن يصل الإنسان إلى حدود العمل القسري ويفقد كل وسائل دفاعه عن نفسه وعن شروط عمله.. معنى ذلك أن تنحدر شروط العمل إلى الدرج الأسفل وينكمش الأجر إلى الحد الذي يقيم أود الحياة.

وكما يفقد العمال في أفكار الإخوان نقاباتهم واتحادهم العام والصلة مع الاتحادات العالمية، فإنهم يفقدون أيضا سلاحهم المباشر في الضغط على الرأسماليين.. يفقدون سلاح الإضراب الذي طالما هاجموه في كل المواقف التاريخية السابقة، وجميعنا يعلم أنه الرأسمالي لا يخشى شيئا قدر توقف عجلات الإنتاج.. وعجلات الإنتاج لا تتوقف إلا بقرار جماعي من أغلبية عمال المصنع.. فإذا استخدم الإخوان سلاح: تحريم الإضراب.. فهم ينحازون بذلك إلى صف الرأسمالي ويدافعون له عن مصالحه.. (تحل المشاكل بالتفاهم مع من يعنيهم الأمر.. لا بالإضرابات وإحراق المصانع والمركبات والمنشآت العامة) [١٧] هجومهم على سلاح

الإضراب لا ينحصر في أوقات تفجر الأحداث فقط وإنما في أوقات السكون أيضا، نجدهم يرسخون لفكرة الفردية وضرب الروح الجماعية لدى العمال..

فإذا ما نجحوا في زرع روح الفرقة بين العمال فلن تتوقف عجلات الإنتاج أبدا إلا بإرادة الرأسمالي وحسب مصالحه.. فينقلب بذلك الوضع ويضاف إلى الرأسمالي عاملا جديدا من عوامل القوة يضغط به على العمال لقبول كل شروطه المتعسفة.. والإخوان يعرضون لهذا المنطق بطريقة ملتوية وسماحة زائفة حينما يقولون: حسنا.. العامل الذي لا يعجبه عمله فليتركه.. ولكن بمفرده ولا شأن له بالآخرين:

ومادام من حق الفرد أن يباشر العمل الذي يريده، فمن حقه أن يترك العمل إذا شاء، ولكن هذا الحق مقيد بعدم الإضرار بالمصلحة العامة، ولهذا قال الفقهاء "يجوز لولي الأمر حمل أرباب الحرف والصناعات على العمل بأجرة المثل إذا امتنعوا عن العمل، وكان في الناس حاجة لصناعتهم وحرفهم، ومن ثم لا نرى مسوغا للإضراب العام من قبل العمال في الدولة الإسلامية؛ ذلك أن في هذا الإضراب

تعطيلا للإنتاج، وإضرارا بالمصلحة العامة، وإذا قيل: إن فيه وسيلة لحمل أرباب العمل على إنصاف العمال، كتعديل أجورهم فهذا التبرير لا مكان له في الدولة الإسلامية لأن الدولة مأمورة بإقامة العدل، ومن العدل حصول العمال على أجورهم العادلة منها إن كانوا من عمالها، وإن كانوا يعملون عند غيرها من المواطنين فعلى هؤلاء أن يعطوا الأجر العادل، فإن أبوا تدخلت الدولة لإقامة العدل بين هؤلاء في مسألة الأجور، فلا يضار عامل ولا رب عمل، فتستقيم أمور المجتمع وتنجو من الرجات.) [١٨]

يا لها من حرية مطلقة على طريقة فكر لنفسك فقط.. واختر ما تشاء لنفسك فقط.. أما التفكير مع الآخرين، وأحاسيس التضامن والأهداف المشتركة فتلك جرائم لو فعلها أي عامل فلن يجد إلا الردع الفوري.

إنهم يسمحون للعامل بحق التوقف عن العمل.. وهذا معناه ببساطة خروجه من العمل، وهذا لا يمت إلى الإضراب بصلة.. ولا يشكل أي وسيلة ضغط على الرأسمال من أجل تحسين ظروف العمل، بل على العكس إنه وسيلة ضغط على العمال حتى لا يعربوا عن أي تمرد.. فالتمرد الفردي

المسموح به معناه القذف إلى عارضة الطريق، ولذلك سيفكر أي عامل آلاف المرات قبل أن يعلن موقفه، وسيرضخ للشروط القائمة لأن في انتظاره تعسفات أخرى من نوع العمل الإجباري.

إنهم يخافون المواقف الجماعية، ولذلك يحاولون أن يزرعوا وعيا مضادا وأفكارا مناوئة:

- فردية العامل ضد فكرة طبقة عاملة متضامنة وقوية.

- امتناع العامل الشخصي عن العمل ضد سلاح الإضراب الجماعي، وخطورة فتاوى الإخوان أنها محاولة للتخفي تحت ثياب الدين لزرع وعي مضاد فشلت أجهزة رأس المال التقليدية ودعايتها في زرعه.

(إن قبول العمال للحلول الإسلامية في المنازعات أمر طبيعي يتصل بعقيدة كل مسلم.. فقد رباهم الإسلام على الرضا والطاعة.) [١٩]

وباسم الإسلام على العامل أن يرضى بكل قوانين القمع، وإذا ما فكر في التمرد الفردي.. هذا الحق الذي خولوه له من قبل لنفي حق الإضراب الجماعي.. فإنه سيصبح عاطلا عن العمل، وعندها يعدون له عقابا أشمل ربما يودي بحياته

كلها.. فهم يسلمون للحاكم حق التعزير ضد كل أفراد الشعب الذين لا يعملون:

(من حق الإمام أن يعزر الناس على المعاصي التي لا حد فيها ولا كفارة، وأن يؤدبهم بما يراه ملائما من العقوبات وأن لا يسمح لهم باتخاذ سؤال الناس حرفة لهم.) [٢٠]

وبالطبع فإنهم لا يريدون من العمال أمام هذا الجبروت العاتي سوى الطاعة ثم الطاعة والرضوخ الكامل، بحجة أن: (العامل المصري قنوع، هادئ وديع، والأفكار المتطرفة لم تتمالك بعد إلا قلة قليلة لا يؤدبه بها، ولولا قسوة الحياة وشدة الغلاء.. لما شكا العمال.) [٢١]

إن فكرة القناعة.. القديمة.. الحديثة في فكر الإخوان تتقابل مع الرضوخ لأشد ظروف الحياة قسوة.

فكرة يقدمها الإخوان مغلفة بغلاف الدين ومزركشة بوعود الجنة الموعودة للجانب الضعيف.. الفقير في التركيبة الاجتماعية ليأبدوا له وضعه ويصلبوه في قناعات زائفة.. وبذلك يكون الإخوان قد رسخوا للرأسمال حلمه وجسدوا له أمانيه وكسوها لحما وعظما.

مراوغون حتى الموت

والآن بعد تلك الرحلة الطويلة في المواقف والأفكار والتفاصيل ربما يساعدنا رصد المشترك بينها على فهم الطبيعة الأساسية لجماعة الإخوان المسلمون:

الملاحظة الأولى تدور حول وجود أزمة اجتماعية واضحة تسبب حالة من السخط الشعبي العام، ويكون حجر الزاوية المعبر عن هذا السخط المتفجر وغير المكتوم هو في تحرك الكتل العمالية الضخمة في المصانع.. فتزداد وتيرة الإضرابات والاعتصامات العمالية التي تبدأ بشكل عفوي كرد فعل للغلاء الفاحش والبطالة والتضخم، ثم سرعان ما تبدأ في اكتساب وعي سياسي ذي طابع يساري غالبا.

الملاحظة الثانية: هي في كيفية تعامل السلطات القائمة مع الحركات العمالية، فهي تلجأ كالعادة إلى استخدام وسائل القمع التقليدية المتمثلة في الشرطة والجيش. وتبدو لها تلك الوسائل غير كافية لاستيعاب الغضب الشعبي في حالة اتساعه ووصوله إلى نقط تهدد كيانها من الأساس. فتبحث

عن حل سياسي له رطانة فكرية تقنع الجمهور الساخط وتحتويه عبر آليات أخرى.

الملاحظة الثالثة: هي في وجود جماعة الإخوان المسلمون في الأوساط غير العمالية مستغلة وضع الأزمة ومنطلقة منه.

الملاحظة الرابعة والأهم: هي في تبلور علاقات وثيقة بين جماعة الإخوان المسلمون وبين بعض رموز الرأسماليين والحكام الذين يقومون بقمع الحركة العمالية بشراسة، بينما يتركون حرية الحركة للإخوان ويساعدونهم في الخفاء ويذللون لهم صعاب الحركة والانتشار.

وفي كل مرة حدث فيها هذا اللقاء قام الإخوان بدور مساعدة هؤلاء الحلفاء في مهمة قمع الطبقة العاملة وتسكين تمردها.

- لقد ساعد الإخوان حكومات الأقلية (إسماعيل صدقي – علي ماهر – محمد محمود – النقراشي) في كسر الإضرابات العمالية أثناء الثلاثينات والأربعينات.

- وأيدوا عبد الناصر في مذابح كفر الدوار عام ١٩٥٢.

- وهاجموا إضرابات عمال حلوان في السبعينات وإضراب الحديد والصلب في الثمانينات.. فهل كان كل ذلك محض مصادفة..؟؟

- هل كان محض مصادفة السماح لهم بحق تكوين فرقة الجوالة وإصدار عدة مجلات والتمتع بحرية عقد الاجتماعات في الوقت الذي كانت الأحكام العرفية مفروضة على الحياة السياسية برمتها في مصر...؟؟؟

- هل كان محض مصادفة أن يمنح الإخوان حق إصدار جريدة يومية عام ١٩٤٦، بينما كل الصحف الأخرى تعاني من وطأة قانون الرقابة على الصحف..؟

- هل كان محض مصادفة أن يكون أعداء العمال وسفاحيهم "صدقي – ماهر" وغيرهم هم أصدقاء الإخوان..؟

- هل كان محض مصادفة أن يكون شهر العسل القصير بين عبد الناصر والإخوان المسلمون هو نفس الوقت الذي مثل ذروة قمع الإضرابات العمالية..؟

- هل كان محض مصادفة أن يعود الإخوان في السبعينات بعد طول غياب عن الحياة السياسية، وتُجرى

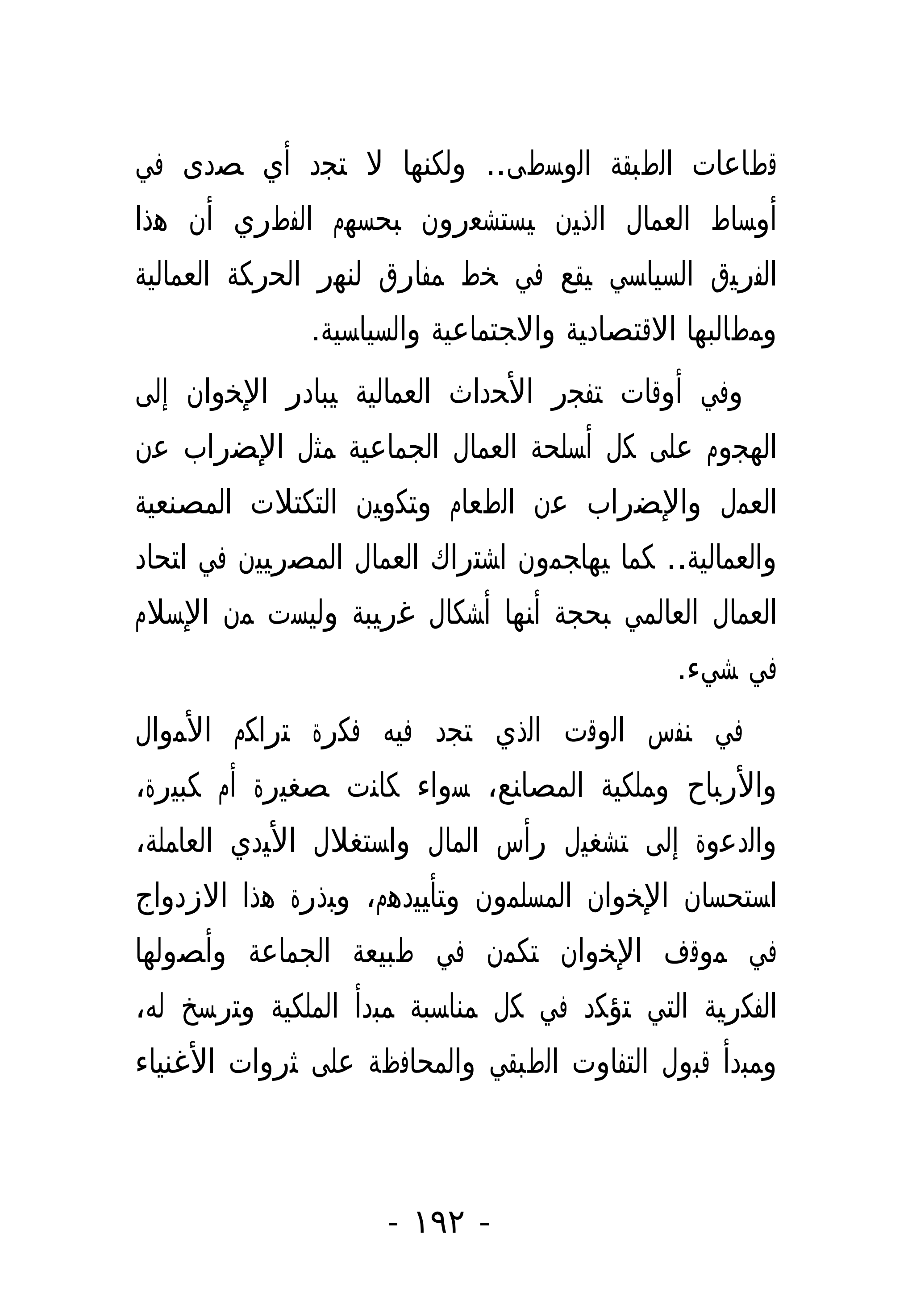
للجماعة عمليات تدليك صناعية لبث الحياة في أطرافها الميتة في وقت تصاعد المظاهرات الطلابية والعمالية..؟

* * *

سجل طويل من العداء يحمله الإخوان للطبقة العاملة، ومجرد سرد وقائعه يكشف عمق الجماعة وجوهر وجودها وحقيقة دورها الذي ينتظره منها حلفاؤها من الرأسماليين.. بينما تموهه وتلونه الدعاية شتى التلوينات حتى تكاد تخفيه تماما عن الأنظار.

فالإخوان يدعون أنهم يعملون لصالح كل طوائف الأمة.. بينما مواقفهم لا تتساوى أبدا إزاء أصحاب الأملاك والعمال، وكل كتاباتهم النظرية تكشف عن مدى الانحياز للطرف الأول دون الطرف الثاني.

ومع ذلك فهم يدركون أن من أهم مقتضيات وجودهم الاجتماعي هو الانتشار وجذب الجمهور وحشده وتنظيمه، وإلا لن يكون هناك معنى لوجودهم السياسي، فيوجهون خطابهم إلى مختلف طبقات الأمة وتعلو رطانتهم ذات الزي الإسلامي والمواعظ الدينية فتطرب السادة الرأسماليين كلما أسرفت في التأكيد على حق الملكية، كما تجد صداها في


قطاعات الطبقة الوسطى.. ولكنها لا تجد أي صدى في أوساط العمال الذين يستشعرون بحسهم الفطري أن هذا الفريق السياسي يقع في خط مفارق لنهر الحركة العمالية ومطالبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وفي أوقات تفجر الأحداث العمالية يبادر الإخوان إلى الهجوم على كل أسلحة العمال الجماعية مثل الإضراب عن العمل والإضراب عن الطعام وتكوين التكتلات المصنعية والعمالية.. كما يهاجمون اشتراك العمال المصريين في اتحاد العمال العالمي بحجة أنها أشكال غريبة وليست من الإسلام في شيء.

في نفس الوقت الذي تجد فيه فكرة تراكم الأموال والأرباح وملكية المصانع، سواء كانت صغيرة أم كبيرة، والدعوة إلى تشغيل رأس المال واستغلال الأيدي العاملة، استحسان الإخوان المسلمون وتأييدهم، وبذرة هذا الازدواج في موقف الإخوان تكمن في طبيعة الجماعة وأصولها الفكرية التي تؤكد في كل مناسبة مبدأ الملكية وترسخ له، ومبدأ قبول التفاوت الطبقي والمحافظة على ثروات الأغنياء

بمقتضى قاعدة "وجعلنا بعضكم فوق بعض طبقات" وقول المودودي:

(أصبح لزاما أن يكون التفاوت بين الناس في الكسب بحسب تفاوتهم في المواهب والقوى والاستعداد فمنهم من يكسب أكثر مما يحتاج إليه، ومنهم من لا يستطيع اكتساب ما يفي بحاجاته، ومنهم من يكتسب بقدر الكفاف.) [(٢٢)]

وهنا يطمئن أي رأسمالي ويركن إلى الراحة تحت مظلة الإخوان المسلمون التي تشرع لحقه في التملك المطلق، والنمو بلا حدود.. فثروته وأملاكه.. مصانعه ومشروعاته.. عقاراته ومنقولاته كلها في أمان بمقتضى تلك التشريعات.. وما يسمى بالحدود الإسلامية التي يرفعها الإخوان لا تمس جيبه من قريب أو بعيد.. بل تعمل على انتعاشه.. حتى بالنسبة للسلاح الباتر الذي يشهره الإخوان في فخر، بحجة أنه الحل الأمثل لتحقيق العدالة الاجتماعية وهو سلاح الزكاة.. هو حد ضعيف جدا ولا يرقى حتى إلى مرتبة الضرائب الحديثة التي يرتع في ظلها عتاة الرأسماليين فيراكمون المزيد والمزيد من الثروات. وكل ما يفعله الإخوان إزاء تضخم الثروات هو تقديم المواعظ في استحياء.

(المجتمع الإسلامي لا ينظر بعين الاستحسان والتكريم إلى الذين يدأبون على إدخال الأموال والاتساع في الثروة، ولا يصرفون فضول أموالهم إلا في الاستثمار والتزيد.) (٢٣)

ولكن ماذا تنفع عين الاستحسان في مجتمع يرزح تسعة أعشاره تحت خط الفقر، خصوصا وأن هناك آلاف النصائح المضادة في نفس فكر الإخوان تحض على المزيد من الاكتناز، وعلى سبيل المثال نصيحة "حسن البنا" التي قدمها لأتباعه في رسالة التعاليم:

(أن تحرص على القرش فلا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال.) (٢٤)

وبالطبع لن يتساوى كل المسلمين داخل تلك القوقعة العنصرية والطائفية في امتلاك الثروة والحفاظ عليها.. فهو خطاب عالي الصوت موجه إلى جمهور المسلمين لاستثارة النزعات الطائفية.. لكن يظل الأمر في حدود التقسيم الطبقي القائم بالفعل.

فالإخوان حزب يتحدث باسم الأغلبية دائما بينما تعمل آلياته لصالح الأقلية الموجودة بالفعل، حزب يحشد الجمهور

الواسع الناقم على الفقر تحت مظلة وعوده الواسعة ويمهد بهم الطريق لانطلاق تلك الصفوة المالكة.

والإخوان يسارعون إلى نفي وجود الطبقة العاملة كجسد واحد كبير يقوم بعبء الإنتاج الاجتماعي وما يترتب على ذلك من المطالبة بدور سياسي يلائم هذا العبء.

وهنا نجد تفسيرا لعداء الإخوان المسلمون لحركة الطبقة العاملة المطلبية، وعدائهم لأسلحة الإضراب عن العمل وشتى الأسلحة الأخرى المعبرة عن الروح الجماعية.

كما نجد تفسيرا لتحالف بعض الرموز الرأسمالية وبعض الحكام مع الإخوان، ومساعدتهم في الصعود.

ولكن هل هذا التحالف هو تحالف دائم، يطرح نفسه بحدة على الصعيد الاجتماعي دائما.. أم أنه يتعرض لذبذبات وتقلبات شتى...؟

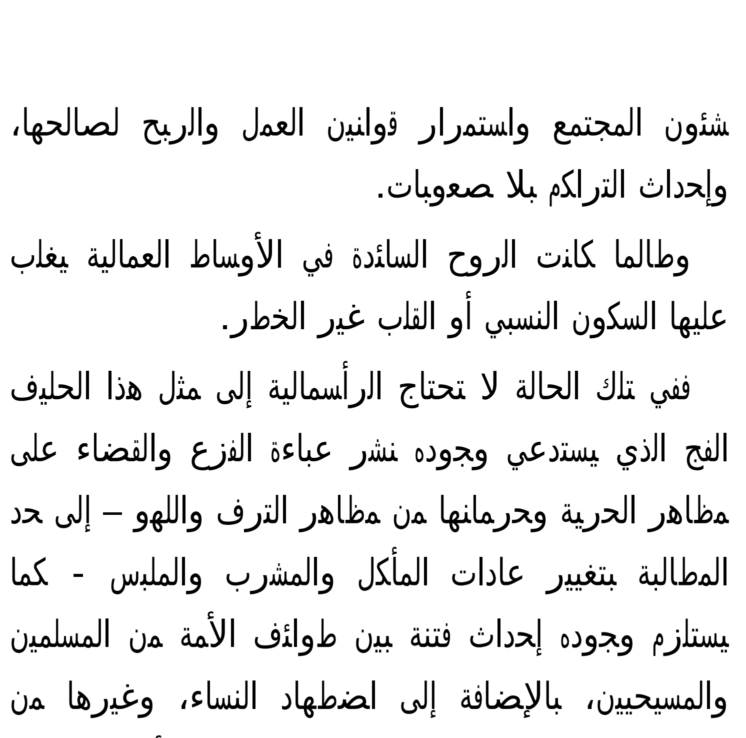
لقد طفحت بثور الإخوان المسلمون على سطح المجتمع في الفترات التاريخية السابق الإشارة إليها، واختفت في فترات أخرى.. صعدت بعض الوقت وشفي منها المجتمع في البعض الآخر.

وفي كل مرة انقلب حلفاؤها إلى أعداء أنزلوا بها مختلف أنواع العقاب.. فتفتت الجماعة وقتل "حسن البنا" على يد "إبراهيم عبد الهادي" رئيس وزراء إحدى حكومات الأقلية، ثم سحقت الجماعة، وشنق سيد قطب في سجون عبد الناصر.

وهكذا تحول أصدقاء الأمس إلى أعداء للجماعة. فما الذي يحدد الصعود والهبوط. هل هي إرادة الإخوان فقط..؟ إذا كان الأمر كذلك فهم بلا شك يريدون التوسع والانتشار دائما. شأنهم في ذلك شأن أي جماعة سياسية.

ولكنهم ليسوا الطرف الوحيد في اللعبة السياسية.. الرأسمالية هي الطرف الأساسي هنا.. هي التي تغمض عينيها عن توسعهم طالما هي في حاجة إليهم.. وتمنحهم التسهيلات والمقَرات وتصاريح إصدار المجلات والجرائد.. وتترك لهم هوامش واسعة لحرية الحركة.. ثم تتعقبهم وتحاصرهم حينما تقل حاجتها إليهم أو تختفي.. فلماذا تلجأ إليهم حينا وتطمرهم في التراب أحيانا أخرى..؟

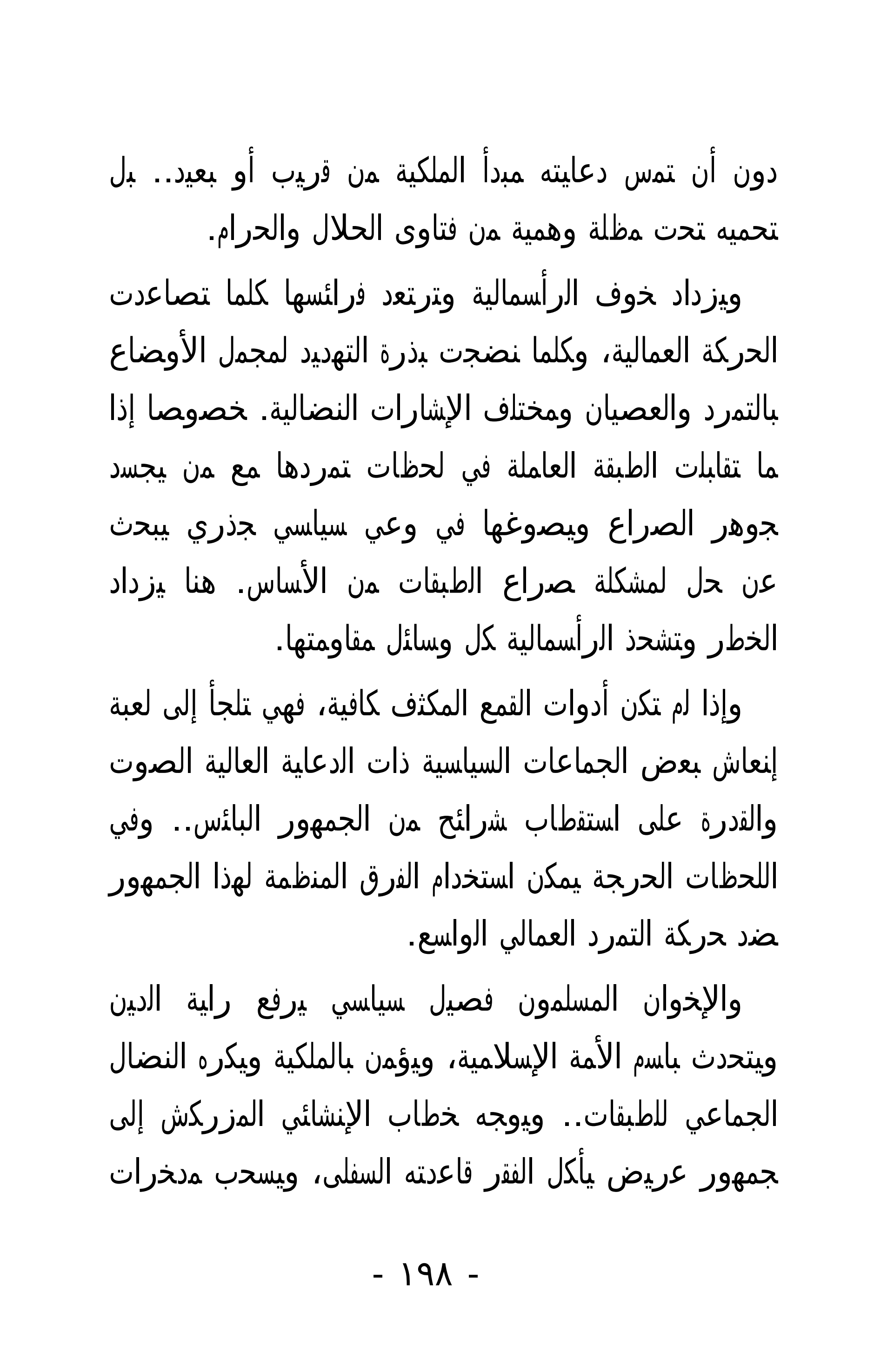
الملاحظة الأساسية التي نلمحها من خلال تأمل تاريخهم.. هي وضع الأزمة الاجتماعية وعلاقة ذلك بظهور المقاومة العمالية.. فطالما كانت الرأسمالية قادرة على تسيير دفة



شئون المجتمع واستمرار قوانين العمل والربح لصالحها، وإحداث التراكم بلا صعوبات.

وطالما كانت الروح السائدة في الأوساط العمالية يغلب عليها السكون النسبي أو القلب غير الخطر.

ففي تلك الحالة لا تحتاج الرأسمالية إلى مثل هذا الحليف الفج الذي يستدعي وجوده نشر عباءة الفزع والقضاء على مظاهر الحرية وحرمانها من مظاهر الترف واللهو – إلى حد المطالبة بتغيير عادات المأكل والمشرب والملبس - كما يستلزم وجوده إحداث فتنة بين طوائف الأمة من المسلمين والمسيحيين، بالإضافة إلى اضطهاد النساء، وغيرها من سمات فكر الإخوان والجماعات الإسلامية الأخرى.. إنها لا تلجأ إليهم إلا في أوقات الشدة، إذا استفحلت الأزمة وانتشرت أمراض الركود والبطالة والتضخم وزادت حدة إفقار الجماهير وغضبها أيضا.. وراحت تبحث عن حل. فإن الرأسمالية في تلك الحالة تفضل التعامل مع وكيل سياسي يملك القدرة على توجيه خطاب عالي الصوت إلى تلك الجماهير البائسة وتقديم الوعود لها ومداعبة حلمها في الثراء



دون أن تمس دعايته مبدأ الملكية من قريب أو بعيد.. بل تحميه تحت مظلة وهمية من فتاوى الحلال والحرام.

ويزداد خوف الرأسمالية وترتعد فرائسها كلما تصاعدت الحركة العمالية، وكلما نضجت بذرة التهديد لمجمل الأوضاع بالتمرد والعصيان ومختلف الإشارات النضالية. خصوصا إذا ما تقابلت الطبقة العاملة في لحظات تمردها مع من يجسد جوهر الصراع ويصوغها في وعي سياسي جذري يبحث عن حل لمشكلة صراع الطبقات من الأساس. هنا يزداد الخطر وتشحذ الرأسمالية كل وسائل مقاومتها.

وإذا لم تكن أدوات القمع المكثف كافية، فهي تلجأ إلى لعبة إنعاش بعض الجماعات السياسية ذات الدعاية العالية الصوت والقدرة على استقطاب شرائح من الجمهور البائس.. وفي اللحظات الحرجة يمكن استخدام الفرق المنظمة لهذا الجمهور ضد حركة التمرد العمالي الواسع.

والإخوان المسلمون فصيل سياسي يرفع راية الدين ويتحدث باسم الأمة الإسلامية، ويؤمن بالملكية ويكره النضال الجماعي للطبقات.. ويوجه خطاب الإنشائي المزركش إلى جمهور عريض يأكل الفقر قاعدته السفلى، ويسحب مدخرات

شرائحه العليا فيهددها هي الأخرى بالإفقار.. ويغازل لديها رغبتها الجبانة في الحفاظ على فتات المدخرات، كما يداعب لديها حلم الإثراء والترقي الاجتماعي.. فهل يكون غريبا بعد ذلك أن نجد جمهور الإخوان الرئيسي يتكون من التجار والمهنيين والموظفين بالإضافة إلى طلاب الجامعة.. بينما لا نجد لهم وجودا محسوسا في أوساط العمال، وإن وجد فلا يتعدى أفرادا قلائل لا يستطيعون جذب النهر العام للحركة العمالية. وكما لاحظنا في المتابعة التاريخية السابقة أن الطبقة العاملة كانت ترفض بحسها الفطري الاندماج تحت راية الإخوان في كل مرة حاولوا اجتذابها فيها..

* * *

إذن ظهرت بثور الإخوان السياسية أثناء بعض أزمات الرأسمالية وصعود المقاومة العمالية. ولكن الرأسمالية لم تستخدم الإخوان حتى النهاية قصفتهم في منتصف الطريق.. ثم عادت وتركت لهم هامشا جديدا للوجود.. ثم ضربتهم من جديد.. وهكذا في سلسلة المتواليات. ولم تمكنهم حتى الآن من تحقق حلمهم في الصعود إلى السلطة.. فقط استخدمتهم في بعض لحظات الاختناق.. ومن جهة أخرى نمت جماعة

الإخوان وتضخمت بفضل مساعدات الحليف وتسهيلاته إلى الحد الذي ظن معه قادة الجماعة أنه لم يعد بينهم وبين كرسي الحكم سوى شعرة رقيقة.. ويبدو أن حساباتهم كانت خاطئة في تلك الأحيان.. فأكلهم حلفاؤهم قبل أن يتحركوا قيد أنملة نحو هدفهم.

وربما لم تطرح المسألة بحدة بعد.. لم تطرح قضية وجود الرأسمالية أو عدم وجودها على هذا المحك أبدا في مصر.. في كل الأوقات السابقة كانت الرأسمالية تتقدم عبر تلك الأزمات غير المستحكمة وتجد منفذا لإحداث تراكم جديد. وبالتالي لم تجد نفسها مضطرة لتسليم كل شيء إلى وكيل سياسي يقوم بتشغيل دولاب العمل بالنيابة عنها.. فلم تضطر إلى تجرع كأس مرارة الإخوان المسلمون وعنفهم.

وذلك بسبب أن تمرد الطبقة العاملة لم يصل أيضا في كل اللحظات الماضية إلى المحك الأخير، ولم يرقَ نضالها إلى درجة الوعي السياسي الكافي.

ولم تتجسد أشكال وجودها السياسي المستقل.

وهكذا تعاملت بعض رموز رأس المال مع الإخوان المسلمون في وقت استفحال الأزمة وتركوا لهم هوامش

عديدة للوجود والنمو.. لكن حينما ازداد خطر الإخوان أنفسهم بمعدلات أعلى من نسب خطر الجماعات السياسية الأخرى.. فإن نفس رموز رأس المال لم يترددوا في القضاء على هذا الحليف المستشري.. فتعقبوا خلاياه وضربوها بلا رحمة. وهكذا لم تكتمل الدائرة بل نكصت على أعقابها.. وقلمت أظافر الإخوان غير مرة في لعبة مزدوجة الخطر.. دقيقة الحسابات شأن لعبة صراع القوى والتوازنات السياسية في أي مجتمع.. وثمة خيوط غير مرئية تشد الجماهير التي تتبع حزب الإخوان المسلمون.. هذه الجماهير التي تطيعهم طاعة عمياء تحت ستار الدين، ولا تنتبه إلى مغزى التحالفات السياسية بين قادتهم وبين رموز رأس المال.. ولا تفيق تلك الجماهير إلا على إثر هزيمة كبرى ودمار شامل يفضح حقيقة دعايتهم الضخمة.

* * *

وإذا كان الفشل الذريع من نصيبهم فيما مضى.. فلا أحد يدري ماذا سيحدث في المستقبل..؟

- هل ستفقد الطبقة العاملة حذرها القديم وتنخدع بدعاواهم وتضعف مقاومتها لهم، فيكون هلاكها المعنوي والمادي أيضاً..؟

- هل ستأتي أزمة اجتماعية طاحنة ترتفع فها موجة الإخوان فيتغلبون على الأعداء والحلفاء ويصعدون إلى السلطة..؟

- أم ستتغير الظروف برمتها ويندثر حزب الإخوان..؟

لا أحد يملك الإجابة الشافية.. كل الاحتمالات ممكنة وغير ممكنة في نفس الوقت.

هوامش الفصل الرابع

١- إبراهيم النعمة: العمل والعمال في الفكر الإسلامي، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

٢- إبراهيم النعمة: المصدر السابق.

٣- الإخوان المسلمون: تاريخ ٩/ ٦/ ١٩٤٨ – إيجابية الإسلام في مقاومة الشيوعية.

٤- عبد القادر عودة: الإسلام وأوضاعنا القانونية، دار الكتاب العربي، ص ٨٩.

٥- أبو الأعلى المودودي: معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام، المطبعة السلفية.

٦- حسن البنا.

٧- إبراهيم النعمة: العمل والعمال، المصدر السابق.

٨- سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الكتاب العربي.

٩- السيد أبو الحسن البدوي: الأركان الأربعة الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج) في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى، دار الفتح

للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٨، ص ١٣١.

١٠- سيد قطب: العدالة الاجتماعية...، المصدر السابق.

١١- أبو الأعلى المودودي: معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام.

١٢- إبراهيم النعمة: المصدر السابق.

١٣- إبراهيم النعمة: المصدر السابق.

١٤- الاعتصام: العدد ١٦، السنة ٢٦، "٣٩٠"، سبتمبر ١٩٧٧، ص ٢٠، نقابات المنتجين، بقلم: أحمد عزت مدني.

١٥- الاعتصام: المصدر السابق.

١٦- الدعوة: العدد التاسع والأربعون، السنة التاسعة والعشرون، ٤٢٣، يونيو ١٩٨٠، ص ٢٩، من أنت.

١٧- صوت الحق: الجماعة الإسلامية، جامعة القاهرة، كتاب إسلامي دوري، الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية، الدكتور: عبد الكريم زيدان.

١٨- صوت الحق: الجماعة الإسلامية، جامعة القاهرة، كتاب إسلامي دوري، الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية، الدكتور: عبد الكريم زيدان.

١٩- إبراهيم النعمة: المصدر السابق.

٢٠- إبراهيم النعمة: المصدر السابق.

٢١- مجلة الدعوة: الثلاثاء ١٣ ربيع الآخر ١٣٧٢/ ٣٠ ديسمبر ١٩٥٢، ماذا يريد العمال..؟

٢٢- أبو الأعلى المودودي، معضلات الاقتصاد، المصدر السابق.

٢٣- أبو الأعلى المودودي، المصدر السابق.

٢٤- حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر.

مراجـع

١- إبراهيم النعمة: العمل والعمال في الفكر الإسلامي، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

٢- أبو الأعلى المودودي: معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام، المطبعة السلفية.

٣- أحمد إبراهيم موسى: من بين صفوف الطبقة العاملة المصرية ١٩٤٣ – ١٩٧١، رؤية موضوعية من خلال تجربة شخصية، دار المستقبل العربي.

٤- أحمد صادق سعد: صفحات من اليسار المصري في أعقاب الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ – ١٩٤٦، مكتبة مدبولي ١٩٧٦.

٥- أمين عز الدين: تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشوءها حتى سنة ١٩٧٠، دار الغد العربي – الطبعة الأولى ١٩٨٧.

٦- أنور السادات: أسرار الثورة المصرية، تقديم: جمال عبد الناصر، سلسلة الهلال ١٩٥٧.

٧- باقر شريف القرشي: العمل وحقوق العامل في الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، بيروت – النجف.

٨- جمال سليم: التنظيمات السرية لثورة ٢٣ يوليو في عهد جمال عبد الناصر، مكتبة مدبولي ١٩٨٢.

٩- حسن البنا: حديث الثلاثاء، سجلها وأعدها للنشر: أحمد عيسى عاشور.

١٠- حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، دار الاعتصام.

١١- حسن البنا: منبر الجمعة، المجموعة الأولى، دار الدعوة.

١٢- حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام الشهيد، المؤسسة الإسلامية للطباعة.

١٣- رفعت السعيد: حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين متى – وكيف ولماذا، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨.

١٤- ريتشارد ب – ميتشيل: الإخوان المسلمون، ترجمة: عبد السلام رضوان، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٨.

١٥- د. سامي أبو النور: دور القصر في الحياة السياسية في مصر ١٩٣٧ – ١٩٥٢، مكتبة مدبولي.

١٦- سيرانيان – الوحدة والإخوان المسلمون – ترجمة بشير السباعي دار أزال للطباعة والنشر – بيروت/ مدبولي القاهرة.

١٧- سليمان محمد النخيلي (دكتور)، الحركة العمالية في مصر وموقف الصحافة والسلطات المصرية منها من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٥٢، الاتحاد العام للعمال ١٩٦٧، الطبعة الأولى.

١٨- سيد قطب: العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الكتاب العربي.

١٩- طه سعد عثمان: مذكرات ووثائق الطبقة العاملة والعمل السياسي من تاريخ عمال مصر، الطبعة الأولى، مؤسسة العروبة.

٢٠- طارق البشري: الحركة السياسية في مصر.

٢١- طه سعد عثمان: من تاريخ عمال مصر، الكتاب الثاني.

٢٢- عبد العظيم رمضان (دكتور)، عبد الناصر وأزمة مارس ١٩٥٤، روزاليوسف ١٩٧٦.

٢٣- عبد العظيم رمضان (دكتور)، تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٦ دراسات في القومية العربية، الطبعة الثانية ١٩٨٣ – مكتبة مدبولي.

٢٤- عبد المغنى سعيد: العمال وثورة ١٩، كتاب العمل، العدد ٦٢/ إبريل ١٩٦٩.

٢٥- صوت الحق: الجماعة الإسلامية، جامعة القاهرة، ١٤، الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان (دكتور).

٢٦- عبد القادر عوده: الإسلام وأوضاعنا القانونية، دار الكتاب العربي.

٢٧- فتحي كامل: مع الحركة النقابية المصرية في نصف قرن، صفحات من ذكريات، دار الغد العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٥.

٢٨- لطيفة محمد سالم (دكتورة)، فاروق وسقوط الملكية في مصر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

٢٩- مارسيل كولومب، تطور مصر ١٩٢٤ – ١٩٥٠، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة مدبولي.

٣٠- محمد نجيب: كلمتي للتاريخ، دار الكتاب النموذجي.

٣١- المسح الاجتماعي الشامل للمجتمع المصري ١٩٥٢ – ١٩٨٠، البناء السياسي،المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية.

٣٢- إسماعيل صدقي: مذكرات، دار الهلال، ١٩٥٠.

٣٣- جون بنين: العمال على ضفاف النيل بالإنجليزية.

Worker on the Nile Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian.

Working class ١٨٨٢ – ١٩٥٤. By Joel Beinin and Zachary Lockman.

الدوريات

١- الأخبار: جريدة يومية، سنة ١٩٥٢.

٢- الأهرام: جريدة يومية، سنة ١٩٥٢.

٣- الاعتصام: مجلة، سنوات ١٩٧٥، ١٩٧٦، ١٩٧٧.

٤- الإخوان المسلمون: جريدة يومية، ١٩٤٦ وحتى ١٩٤٨.

٥- الإخوان المسلمون: مجلة أسبوعية.

٦- الإخوان المسلمون: مجلة شهرية.

٧- النذير: مجلة.

٨- الدعوة: مجلة، سنوات ١٩٥٢ – ١٩٥٣، ومن ١٩٧٦ حتى ١٩٨٠.

٩- المصور: مجلة، سنوات ١٩٤٦ – ١٩٤٧، ١٩٥٢ ١٩٥٣.

١٠- الشعب: جريدة، ديسمبر ١٩٨٦ – فبراير ١٩٨٨، أكتوبر – فبراير ١٩٩١.

١١- لواء الإسلام: مجلة، ١٩٨٩.

١٢- الوفد: جريدة، أغسطس ١٩٨٩.